هــذا خلــق اللــه

فَـأَرُونِى مَـاذا خَـلَـقَ الـذِّيْـنَ مِن دُونـه

صدق الله العظيم

تأليف

دكتور عبد الحليم كامل

أستاذ علم الحيوان - كلية العلوم

جامعة عين شمس



النــاشــر

المكتبة الأكاديمية

١٩٩٤

هــذا خلــق اللــه

فَـأَرُونِي مَـاذَا خَـلَقَ الـذِّيْنَ مِن دُونِـهِ

صدق الله العظيم

رقـم الإيـداع

٩٣/٧٥٥٧

مطابع الكتب المصرى الحديث
MODERN EGYPTIAN PRESS
ت: ٢٢١١٠٧١-٢٢١١٠٧٢

حقوق النشر

المكتبة الأكاديمية

١٢١ ش التحرير - الدقي - القاهرة

تليفون ٣٤٨٥٢٨٢ / ٣٤٩١٨٩٠

تلكس ABCMN U N ٩٤١٢٤

فاكس ٣٤٩١٨٩٠ - ٢٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى من كانت لى الحياة كلها...

إلى من صدق فيها قول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾

إلى روح زوجتى المرحومة الأستاذة الحاجة عائشة محمود على يوسف الموجهة بإدارة مصر الجديدة التعليمية.

أسأل الله أن يشملها برحمته ويسكنها فسيح جناته..

إليها أهدى هذا الكتاب..

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

صَدَقَ اللّه العَظيم
[سُورَة الحَشْر]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ﴾

(سورة العلق)

(١)

الاسلام والعلم

سألنى زميل لى لماذا أنت مسلم فقلت أنا مسلم لأننى إنسان أعتز بإنسانيتى، وأؤمن بالدين الذى يعترف بوجودى كإنسان، ويحترم الإنسان من حيث أنه إنسان مهما كانت ديانته وعقيدته، كما أننى أعلم علم اليقين أننى كائن حى كائن يعيش فى هذا الوجود خلقه وأوجده من خلق وأنشأ ذلك الوجود.

وهذه قضية منطقية واضحة لا تحتاج إلى برهان ولا تحتاج إلى دليل أو دفاع لأنه لا يمكن أن يوجد فى هذا الوجود موجود دون أن يكون له صانع أو خالق يبعثه من العدم ثم يقول له كن فيكون.

هكذا تعلمنا، وهكذا يحدثنا المنطق السليم أن فاقد الشئ لا يعطيه كما يحدثنا العلم المبنى على الدراسة والتجربة أن الكائنات الحية لا تنشأ من العدم، بل تنشأ من كائنات حية أخرى وأن نظرية «التوالد الذاتى» التى كانت تسيطر على الأذهان حتى القرن السابع عشر الميلادى حيث استطاع (دوى) ذلك العالم الايطالى أن يثبت أن ذباب اللحم الذى يظهر عليه إذا ترك مدة من الزمن لا ينشأ من اللحم، كما كان يعتقد فى ذلك الوقت، أو كما كانت تقول نظرية التوالد الذاتى.

ثم تمكن باستير (١٨٢٢ ـ ١٨٩٥) أن يثبت بالدليل القاطع أن الحياة لا تأتى من العدم بل تأتى من كائنات حية أخرى، وأنه من الممكن أن يحتفظ بالمواد العضوية

بعد تعقيمها إلى ما لا نهاية دون أن يتطرق إليها الفساد، ودون أن ينمو عليها أى فطر بكتيريا أو أى نوع من أنواع الكائنات الحية الدقيقة.

وهنا يتجلى أمام العالم المتفهم لشئون الحياة، والذى هو على علم ببعض أسرارها أن الحياة لا تنشأ إلا من كائنات حية أخرى وأنه لابد وأن يكون هناك خالق لهذا الوجود يحيى ويميت وهو الحى الذى لا يموت وسبحانه وتعالى القائل:

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ

(يس ـ ٣٦)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا:

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (الروم ـ ٢٠)

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الروم ـ ٢٧)

وخلق الإنسان معجزة من معجزات الله سبحانه وتعالى تدل على قدرته وعظمته وهو سر لم يدرك بعضه إلا فى منتصف القرن التاسع عشر الميلادى عندما أعلن كل من شيلدن وشوان عام ١٨٣٨ ميلادية ما يسمى «بالنظرية الخلوية» وهى تقول أن كل كائن حى يتكون من خلايا، وأن الخلية هى الوحدة التى يتكون منها الكائن الحى.

وخلق الإنسان من الموضوعات الأولى التى لابد، وأن يفكر فيها أى إنسان منذ طفولته ونشأته كيف وجد؟ وكيف يولد؟ ومن أين أتى؟ ويستوى فى هذا كل من الطفل الصغير، والعالم الكبير، غير أن لكلٍ طريقته فى إدراك ما يريد، وما تؤهله له قدرته العقلية ويهديه إليه مستوى علمه وتفكيره.

الطفل يسأل والكبير يقرأ ويدرس ويبحث مبتدأ بالبيضة والحيوان المنوى كيف يتكونان، وكيف يلتقيان ليكونا ما يسمى بالعلقة، وكيف تتكاثر الخلايا ثم كيف يتجمع بعضها مع البعض ليكون نسيجا ما ويتجمع البعض الآخر ليكون نسيجا آخر. ثم تتجمع الأنسجة مع بعضها لتكون الأعضاء. ثم تكون الأعضاء كلها لحنا جميلا متناسقا لا نشاز فيه يؤدى إلى ولادة كائن حى فضله الله على كثير ممن خلق تفضيلا. فسبحان الذى خلق الإنسان وكرمه ثم السبيل يسره وجعل له مالا ممدودا وبنين شهودا.

ويحدثنا القرآن الكريم عن ذلك من مئات السنين، ومن قبل أن يصل العلم ويدرك العلماء بعض أسرار ذلك التكوين. إذ أن علم التشريح لم يتقدم تقدما ملحوظا إلا فى القرن السادس عشر الميلادى، بينما استمر علم الأجنة ثابتا كما هو منذ عهد أرسطو أى قبل الميلاد، وذلك بأكثر من ثلاثمائة سنة تقريبا. وما ذلك إلا لأن المعتقدات الدينية فى القرن السادس عشر كانت تحول بين العلماء ورغبتهم فى فحص الأجنة التى كانوا يعتقدون أن الله قد أخفاها عن الأعين لحكمة خاصة. ولا يجوز للإنسان أن يبحث ويكشف النقاب عما أخفاه الله.

ولكن الإسلام لا يقر هذا فهو يدعونا إلى أن نبحث ونتعلم ونقف على أسرار خلقه وعظمته وقدرته، ولم تذهب بعيدا وأن أول ما نزل على سيد البشر بعد عبادة حقة وتفكير عميق استمر ليالى وأياما فى غار حراء عندما أتاه الروح الأمين طالبا منه أن يقرأ، وعندما يقول له النبى ما أنا بقارئ فيغطه جبريل عليه السلام حتى يبلغ من النبى الجهد ثم يرسله، ويكرر السؤال، ويتكرر رد الرسول صلوات الله عليه حتى إذا كانت المرة الثالثة يقول جبريل:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (العلق ١ ـ ٥)

ها هو الروح الأمين يطلب من النبى أن يقرأ باسم الله الذى خلق الإنسان من علق وأن يقرأ باسم الله الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم.

وتلك هى الرسالة الأولى من السماء إلى الأرض من الله سبحانه وتعالى إلى خلقه وعبيده الذين أراد لهم العزة كل العزة بالقراءة وتنتهى بالعلم وتدعو الى التعلم بالقلم حتى يتعلم الإنسان ما لم يعلم.

وهنا تظهر الدعوة الإسلامية فى صورتها المنطقية الواضحة القوية فى أسلوبها السهلة فى فهمها. وإلا فما الحكمة فى أن يكون أول ما يوحى به إلى محمد عليه الصلاة والسلام :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) ﴾

وهل هناك ما يشغل بال الإنسان مهما كان العصر الذى عاش أو يعيش فيه أكثر من خلقه وتكوينه. ثم ليزيده اطمئنانا ومعرفة بربه يدعوه إلى العلم والتعلم وأنه سبحانه وتعالى علم الإنسان ما لم يعلم، وأنه خلق الإنسان علمه البيان.

وعن معجزة خلق الإنسان يوضح القرآن كيف يسلك العبد طريق الإيمان استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10) ﴾

(الطارق ٥ ـ ١٠)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (14) ﴾ (المؤمنون ١٢ـ١٤)

دين كهذا يكرم العلم ويحض على التعلم ويدعو إلى معرفة الخالق عن طريق معرفة مخلوقاته كيف وجدت؟ وكيف نشأت؟ لهو الصراط السوى حيث لا لبس ولا غموض بل دراسة وتعلم وبحث وتفكير. وقد كانت لى فرصة لم تتح لكثير ممن يشتغلون بالعلم. فأنا منذ بداية حياتى العلمية اشتغل بعلم الأجنة أدرس وأبحث وأقرأ محاولا أن ازداد فى كل يوم علما، فأعلم ما أتعلم وأحدث تلاميذى بما أرى، بل أريهم ما أرى من تكاثر للخلايا وتشكل لها ثم كيف تسير هذه الخلايا فى طريق مرسوم واضح لا تحيد عنه أبدا لتعطى ما خصصت له من كائنات حية.

فكنت أرى فى كل خلية آية، وفى كل علقة آية تحكى قصة كاملة متكاملة لتكوين كائن حى، يبدأ بالعلقة ثم بالمضغة المخلقة وغير المخلقة إلى تكوين العظام، ثم كسوتها باللحم.

وأنى لأدعو أى إنسان ليرى بنفسه نموذجا سهلا لهذا التكوين فى بيضة الضفدعة التى يوجد الكثير منها فى مجارى المياه فى ريفنا أثناء فصلى الصيف والربيع. فليراقب هذه البيضة وليسهر معها ما استطاع ليراها، وهى تنقسم، وهى تتشكل، وهى تنمو، وهى تتحرك فقد يتعب هو من المشاهدة، ولكنها لا تتعب هى من الإنقسام والنمو وقد تأخذه سنة من النوم فينام حتى إذا انتبه من نومه ونظر مرة أخرى ثانية لعرف أنها لم تنم، كما نام هو وهى لم تركن الى الراحة كما أخلد هو إليها بل كانت مستمرة فى نموها وتخلقها فسبحان الذى أودعها تلك القوة وتلك القدرة. وأن من يعمل فى هذا المجال من العلوم لابد وأن يدرك أن هناك قوة عليا مفكرة مدبرة تدبر أمر كل تلك الكائنات ويعترف أرسطو (فى القرن الرابع قبل الميلاد) ذلك العالم الكبير بوجود تلك القوة العليا قائلا لابد وأن تكون موجودة تحرك المادة الحية التى لا شكل لها فتخلق منها كائنا حيا ينبض بالحياة. ولم يصل أرسطو إلى رأيه هذا إلا بعد أن درس جنين الدجاجة، وكيف يتكون داخل البيضة، وكيف ينمو داخلها، وكيف ينبض قلب الجنين فى اليوم الثانى من أيام الحضانة ولما تنمو الخلايا العصبية بعد عندئذ أدرك

أرسطو أن القلب ينبض بتأثير قوة خفية لا يفهم كنهها ولا سرها إلا الذى خلقها وخلق الإنسان من طين.

ولا زلنا نحن فى عصرنا هذا بعد أربع وعشرين قرنا نؤمن بما آمن به ارسطو. إذا لم يصل العلم بعد إلى سر ذلك النبض الذى يبدأ وئيدا ثم يستمر رتيبا، والجهاز العصبى لم يتكون بعد بل والكائن الحى نفسه لم يتخذ شكله السوى.

وإذا كانت الآيات التى تتحدث عن خلق الإنسان كثيرة وعظيمة فإن هناك آيات أخرى كثيرة وعظيمة تدعو إلى التفكير فى الكون وجماله، وفى الدنيا وما فيها وفى الإنسان وأحواله، وفى الطبيعة أرضها وسماؤها، نجومها وأقمارها، وما يدب على الأرض من حيوان وما ينبت فيها من نبات، وفى تعاقب الليل والنهار لنرى آية الله فى كل شئ وعظمته فى كل ما خلق وقدرته سبحانه وتعالى فى كل ما هو موجود فى هذا الوجود. فنؤمن عن عقيدة بعد دراسة وبحث وتفكير لتكون عقيدتنا ثابتة راسخة ويكون إيماننا يقينا متينا وإسلامنا قويا واضحا. كيف لا وآيات الكتاب وما به من آيات العلم على وجه الخصوص كثيرة استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت ٢٠)

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس ١٠١)

﴿وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ (البقرة ٢٥٩)

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ۝٣٣﴾ (يس ٣٣)

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾ (يس ٣٦)

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ (فصلت ٥٣)

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

(يوسف ١٠٥)

ولا يقف القرآن الكريم عند هذا الحد من الدعوة إلى العلم بل يحض عليه ويدعو إلى الاستزادة من العلم والتعلم، فيقول سبحانه وتعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾ (طه ١١٤)

ويقول جلت قدرته

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾ (النساء ١١٣)

ويقول سبحانه وتعالى ليفتح باب العلم والبحث على مصراعيه أمام كل راغب في العلم والبحث

وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ (الإسراء ٨٥)

ويؤكد القرآن الكريم فى أكثر من آية أن العلم وحده هو الشاهد على وجود الله ووحدانيته وأن العلماء هم أول من يعلمون عن يقين أن الله حق. وهم أول من يؤمنون بربوبيته وقدرته وهم الشاهدون على قدسيته وعظمته. أستمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ

(النساء ١٦٢)

قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ (الرعد ٤٣)

يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ (المجادلة ١١)

وغير ذلك كثير وكثير عن فضل العلم والعلماء إلا فليقرأ القرآن من يريد المزيد.

ويقول النبى صلوات الله عليه (العلماء ورثة الأنبياء) ويقول فى حديث آخر (إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربنى إلى الله عز وجل فلا بورك لى فى طلوع شمس ذلك اليوم)، ويقول على بن أبى طالب رضى الله عنه (العلم خير من المال،

العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم حاكم والمال محكوم عليه، المال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالإنفاق) .

هذا قليل من كثير عن فضل العلم والعلماء وعما قاله القرآن الكريم، ومنه يتضح أن الدين الإسلامى والعلم توأمان وأن الدين لا يقف عقبة فى سبيل العلم بل يدعو إليه ويعتمد عليه ويشجع على البحث ويرغب فى التعلم بل، ويجعل العلم هو الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله سبحانه وتعالى والوقوف على عظمته وقدرته ومن عنده أدنى شك فى هذا فليقرأ القرآن الكريم ليرى أن لفظ العلم قد ذكر أكثر من مائة مرة وأن بالقرآن الكريم ما يقرب من سبعمائة وخمسين آية كونية وعلمية.

دين يعتمد على العلم والمنطق ويستند على البحث والدرس لهو دين حق لأن العلم هو البحث عن الحقيقة وحدها والحقيقة لا تحتمل النقاش أو الجدل.

هكذا كان المسلمون الأوائل ينظرون إلى الكون فيتعلمون منه ويقتنعون بصحة ما يعتقدون فيجدون فى العلم المعجزة، تلو المعجزة والدليل يشد أزر الدليل على قدرة الله ووحدانيته.

استمعوا إلى الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه وقد أتاه أناس يسألونه عن الله سبحانه وتعالى فيقول: ما تقولون فى خشب قطع من الأشجار بلا نجار وأجتمع ثم كون سفينة تجرى فى البحر، وهى مشحونة بالأحمال مملوءة بالأثقال وقد أحتوتها فى لجة البحر أمواج متلاطمة، ورياح مختلفة وهى من بينها تجرى مستوية ليس بها ملاح يجريها ولا متعهد يدفعها.

هل يجوز ذلك فى العقل؟

قالوا لا. قال أبو حنيفة يا سبحان الله إذا لم يجز فى العقل سفينة تجرى فى البحر مستوية من غير متعهد، ومجر فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها وتغير أعمالها وسعة أطرافها من غير صانع وحافظ؟ فقالوا صدقت وآمنوا بالله واعترفوا بوجوده وقدرته سبحانه وتعالى.

بل نقرأ قول الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه وهو يسبح الله معترفا

بقدرته وعظمته فيقول: «انظروا إلى النملة فى صغر جثتها ولطافة هيئتها. لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر كيف دبت على أرضها ووصبت على رزقها تنقل الحبة إلى جحرها وتعدها فى مستقرها تجمع من حرها لبردها. وفى ورودها لصدورها. مكفولة برزقها، مرزوقة بوفقها: لا يغفلها المنان ولا يحرمها الديان ولا فى الصفا اليابس والحجر الجامس، ولو فكرت فى مجارى أكلها فى علوها وسفلها وما فى الجوف من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيت من خلقها عجبا ولقيت من وصفها تعبا. فتعالى الله الذى أقامها على قوائمها وبناها على دعائمها. لم يشركه فى فطرتها فاطر، ولم يعنه فى خلقها قادر.

ولو ضربت فى مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق تفصيل كل شئ وغامض اختلاف كل حى. وما الجليل واللطيف، والثقيل والخفيف، والقوى والضعيف فى خلقه إلا سواء».

واذا كان الإسلام يدعو الى العلم ويحض عليه فإنه أيضا يكرم الإنسان فى محكم آياته ويضعه فى المرتبة الأولى بين سائر المخلوقات استمعوا لقوله تعالى:

* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ (الإسراء ٧٠).

ويقول سبحانه وتعالى:

لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ (التين ٤)

ويقول جلت قدرته:

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾.

(البقرة ٣٠)

ويقول سبحانه وتعالى مخاطبا ملائكته:

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ (الحجر ٢٩)

وعندما يريد الله أن يكرم آدم كرمه بالعلم، وفى تكريم آدم بالعلم تكريم للعلم ودعوة للعلم والتعلم، وهكذا يعلم سبحانه وتعالى آدم الأسماء كلها، ويسأل ملائكته أن

.أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ (البقرة ٣١)

بل استمعوا الى القصة كلها كما يحكيها القرآن الكريم:

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾

(البقرة ٣٠ ـ ٣٢)

وهل هناك تكريم أكثر من هذا التكريم. يتحدث سبحانه وتعالى عن آدم بأنه خليفته فى أرضه خلقه وعلمه الأسماء كلها ثم يدعو ملائكته ليسجدوا له فتقول الملائكة:

أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ

فيقول سبحانه وتعالى

إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ (البقرة ٣٠)

وبالرغم من هذا التكريم والتعظيم لآدم عليه السلام يعصى ربه ويغوى، ولكن الله

الرحيم بعباده يعفو ويغفر أليس هو الغفور الرحيم. ويتوب الله على آدم كما يحدثنا القرآن الكريم:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾

(طه ١٢١ـ١٢٢)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَـٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

(البقرة ٣٧)

وهنا يقف الإنسان قليلا ويفكر: أخطاء آدم... هكذا يحدثنا القرآن الكريم فما ذنب أبناء آدم كلهم فى تحمل وزر خطيئة ارتكبها أبوهم، ولماذا يعاقبون كلهم على هذه الخطيئة، وكما يقال لولا النجاة على يد السيد المسيح الذى فدى البشر جميعا بدمه الطاهر لكان مصير البشرية كلها إلى هلاك، وما ذنب من مات قبل المسيح... أيعذبون فى نار جهنم بذنب لم يقترفونه وجريمة لم يشهدوها، ولم يرتكبوها العقل يقول لا.. والمنطق يقول لا.. والعدل يقول لا.. وأرجع إلى الإسلام والقرآن الكريم فأقرأ فيه ما يعيد إلى نفسى اطمئنانها وما يضع الأمور فى نصابها. وهنا تظهر عظمة الإسلام وقوة دعوته. بل استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ (الإسراء ١٣ـ١٤)

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾

(البقرة ١٣٤)

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (فاطر ١٨)

وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ
(النجم ٣٩ ـ ٤٠)

وغير ذلك كثير وكثير مما لا يدع مجالا للشك فى أن الله سبحانه وتعالى لا يظلم الناس شيئا، ولكن الناس أنفسهم يظلمون. وسبحانه وتعالى القائل:

وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ (الأنفال ٥١)

هذا هو المنطق المعقول، وهذا هو العدل الذى لابد وأن يكون. وعندما أراد الله سبحانه وتعالى أن يفضل داود وسليمان على كثير من عباده الصالحين فضلهما بالعلم أيضا استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ (النمل ١٥ ـ ١٦)

ولسليمان عليه السلام قصة طريفة مع بلقيس ملكة سبأ. وهى قصة يعرفها كل من قرأ القرآن أو استمع إليه. ولكن ما يعنينا هنا ونحن نتكلم عن العلم وسطوته وقدرته.

فعندما يقول عليه السلام كما يحدثنا القرآن الكريم:

قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾

فيقول عفريت من الجن:

أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾

(النمل ٣٨ـ٣٩)

ولكن الذى عنده علم من الكتاب يقول:

قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ
مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ
وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ (النمل ٤٠)

وهكذا استطاع الذى عنده علم من الكتاب أن يعمل ما لم يستطع عليه عفريت من الجن.

وإذا كانت هذه القصة استعراض لقدرة العلم فإن ما حدث بين موسى عليه السلام والخضر درس ليعلم من عنده علم أن هناك من هو أعلم منه وهكذا لا يقف. ولا يغتر بما وصل إليه من علم بل لابد وأن يستمر فى طلبه العلم ويقال فى تفسير البيضاوى أن موسى عليه السلام قال يارب إن كان فى عبادك من هو أعلم من دللنى عليه: قال سبحانه وتعالى: الخضر أعلم منك. قال موسى: أين أطلبه. قال سبحانه وتعالى: على الساحل عند الصخرة. قال موسى كيف لى به. قال سبحانه وتعالى: تأخذ حوتا فى مكتل فحيث فقدته فهو هناك. وهكذا تستمر القصة كما يحكيها القرآن الكريم فى سورة الكهف:

.قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ
أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ
مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾
وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ (الكهف ٦٣ ـ ٦٨)

ويعده موسى بالصبر وعدم عصيان الأمر، وتسير الأمور، ويسيران وتستمر القصة من خرق لسفينة ركباها إلى قتل غلام لقياه ثم يهبطان قرية يأبى أهلها أن يضيفوهما

ولكنهما يجدا جدارا يريد أن ينقض فيقيمه الخضر، وفى كل مرة ينفذ صبر موسى عليه السلام، ويسأل حتى كانت المرة الثالثة والأخيرة فيحدثه الخضر بما غاب عنه وينبئه بما لم يستطع عليه صبرا وأنه ما فعل هذا إلا بناء على أمر من الله عز وجل. وهكذا تتم الحكمة من هذا اللقاء وهذه المصاحبة، وأنه يجب على الإنسان أن لا يغتر بعلمه وأن لا يبادر إلى إنكار ما لم يستحسنه من الأمور فلعل فيه سر لا يعرفه أو حكمة لا يدركها، وأنه لابد وأن يسأل ليعلم ويصبر على ما لم يعلم ليزداد معرفة ويتعلم.

والإسلام فى دعوته يخاطب الفكر والعقل ويدعو الناس عن طريق التفكير والنظر والتدبر إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ثم هو فى نفس الوقت يندد بالذين ضلوا عن ذلك الطريق، ولم يستعملوا عقولهم فى الوصول إلى معرفة الحق سبحانه وتعالى والإيمان بوجوده، ويحدثنا القرآن الكريم عنهم وقد عرفوا الحق:

لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ (الملك ١٠)

ويسأل سبحانه وتعالى من يتبعون الظن ويبتعدون عن اليقين فيقول:

قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

(الأنعام١٤٨)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا:

وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾

(النجم٢٨)

وينظر الإنسان نظرة أخرى إلى من جمد تفكيرهم وتحجرت عقولهم فلا يتعلمون ولا يبحثون مقلدين آبائهم وأجدادهم دون تمييز أو تفكير، ودون الإلتزام بشريعة الله التى شرعها لعباده، وهى أن ينظروا ويتفكروا ويتعلموا ويبحثوا. ويقول القرآن الكريم

عنهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة ١٧٠)

ويقول سبحانه وتعالى عنهم فى آية أخرى:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

(المائدة ١٠٤)

ولا يرضى الإسلام عن هذا الجمود فى التفكير ولا تقره الشريعة الإسلامية لأنها ترى فى هذا الجمود سلب لإنسانية الإنسان التى كرمه الله بها، ومنعه من استعمال حقه المشروع فى الحياة من أن يعلم ويتعلم، وينظر فى ملكوت السموات والأرض ويتفكر فى كل ما خلق الله ليميز بين الظلمات والنور، وحتى لا يضل عن سبيل الحق ويصدق فيه قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف ٢٨)

ويعلن الإسلام منذ نشأته الحرب على الجهل فهو يحث على تعلم القراءة والكتابة وهما دعامتان أساسيتان لكل من يطلب العلم. حتى أن المسلمون كانوا يطلقون سراح الأسير إذا علم عددا من المسلمين القراءة والكتابة. بل قد كانوا يجعلون تعليم القرآن مهرا للزواج.

وهكذا انتشر الإسلام ووصل المسلمون إلى مرتبة من الرقى لم تصل إليها أمة من الأمم وما ذلك إلا لأنهم تسلحوا بالدين والعلم فعرفوا الله المعرفة الحقة وتعلموا وعلموا

وكتبوا وألفوا فى شتى العلوم والفنون وحسبهم من الحوافز ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ (العلق ١ ـ ٥)

وفى هذه الآيات الكريمة يسوى سبحانه وتعالى بين أمرين عظيمين وهما خلقه لعباده ونعمة العلم والتعلم مشيرا بذلك إلى أن المخلوق الذى خلقه الله وكرمه إن لم يتخذ من العلم سبيلا فلا وجود له، ولا قيمة له ولا عزة فى هذه الحياة.

ويكرم الله العلم فى آية أخرى، وفى سورة أخرى فيقسم سبحانه وتعالى بالقلم فيقول:

﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝﴾ (القلم ١ ـ ٢)

ولا يذهبن بنا الظن أن العلم فى نظر القرآن هو العلم بالشرائع فقط والعلم بالأحكام من حلال أو حرام وإنما العلم فى نظر القرآن والدين هو العلم بكل ما يفيد الإنسان فى حياته ولم لا؟ وقد جعله الله خليفته فى أرضه يعمرها ويستخرج كنوزها ويزرع أرضها ويحصد ثمارها، ولا يتم كل ذلك إذا أردنا أن نقول إلا بالعلم، فبالعلم الذى أساسه المعرفة والتجربة والبحث يصلح الزرع فينمو بل ويزداد فى نموه ويكثر ويزداد محصوله، وكذلك بالعلم الذى أساسه المعرفة والدراسة والبحث يصلح حال الحيوان فيقوى ويكبر ويزداد خيره ونسله، وبالعلم وحده بما فيه من خبرة وتعلم وبحث تزداد معاملاتنا المالية وتزداد بذلك موارد الدولة وازدياد الموارد دعامة كبرى من دعامات قوى الشعوب.

وهكذا يقال عن الطب والهندسة والصناعة، وغير ذلك من العلوم الأخرى والتخصصات الحديثة المختلفة التى يحسن بها حال المسلمون فلا جمود ولا ركود فى الإسلام ولا حدود تحول بين العقل والفكر البشرى، وما يصلح وما يفيد حتى الحرب

وتدريب الجيوش وعمل التحصينات للدفاع عن النفس والوطن علم يحث عليه الدين ويدعو له استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾
(الأنفال ٦٠)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ (التوبة ٤١)

ويقول الرسول صلوات الله عليه: (من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد).

ونحن المسلمين اليوم ما أحوجنا إلى أن نتعلم ونبحث فى المجهول لنستزيد علما وقوة ويكون لنا شأن بين أمم الأرض ونكون قد أطعنا قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾
(الأنفال ٦٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾

(سورة الحجر)

(٢)

المعجزة الدائمة

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد أيد كل رسول بمعجزة لتكون بينة على صدق دعواه، وهذا من غير شك فضل من الله ورحمة كيف لا وهو الغنى عنا وعن إيماننا ولكنه كما يقول القرآن الكريم:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء ١٥)

وكانت هذه المعجزات دائما من نفس ما اشتهر به الناس فى ذلك الوقت، وهكذا كانت معجزة موسى عليه السلام الذى ألقى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون وعندما يضمم يده الى جناحه تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى. وكذلك كانت معجزة عيسى عليه السلام أن رد البصر للأعمى، وشفى الأكمة والأبرص. وأحيا الموتى بإذن الله.

أما معجزة محمد عليه الصلاة والسلام فكانت القرآن الكريم وما ذلك إلا لأن العرب فى ذلك الوقت كانوا من أرباب القلم وعمالقة البيان فيأتيهم القرآن الكريم ببلاغته وبيانه وهديه وإعجازه ليتحداهم جميعا أن يأتوا بمثله فيفشلون ويعجزون.

وإذا كانت كل معجزة تنتهى بانتهاء حياة الرسول الذى أنزلت من أجله، إلا أن

معجزة محمد عليه الصلاة والسلام قد أنزلت لتبقى وستبقى ما دامت السموات والأرض لأن الذى أرسلها تعالت قدرته وعظمت مشيئته أراد لها البقاء وقدر لها الدوام لتكون بينة وهداية لمن يريد أن يملأ قلبه بنور الإيمان وهكذا يقول القرآن الكريم:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ (الحجر ٩)

ويقول جلت قدرته:

وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

(الأنعام ١٥٥)

وهكذا كان القرآن الكريم ويكون دائما معجزا لخلقه تبارك وتعالى من إنس وجان معجزا فى أسلوبه وبيانه، معجزا فى لغته وآدابه، عظيما فى سياسته وشريعته حكيما فى حكمه وهدايته، صادقا فى أخباره وقصصه، متحديا من يقول إنما يعلمه بشر فيقول وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ (البقرة ٢٣-٢٤)

وعندما يثبت عجزهم يقول القرآن الكريم فيهم:

قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ (الإسراء ٨٨)

وهكذا كان القرآن الكريم المعجزة الكبرى التى أنزلت لتكون نورا يهدى إلى نور الله الذى يضئ كل ما فى الوجود فهو سبحانه وتعالى نور السموات والأرض، يضئ لكل من يريد أن يعرف الله فيدله على نفسه فيعرفها حتى إذا عرف نفسه عرف ربه، وإذا عرف ربه خشع قلبه ولانت جوارحه ويسعد بقربه من الله، وهكذا عندما يريد الله

لعبد من عباده خيرا يهديه إلى ذلك النور المكتوب بحروف من نور، فيجد فيه ما يريد من شفاء للصدور، ويذهب عنه الحيرة التى يشعر بها كل من يعرف نفسه، ولم يعرف ربه وغمت عليه الرؤيا فابتعد عن طريق الهداية والنور.

وبالرغم من كل ذلك، ومن أن معجزة القرآن الكريم معجزة واضحة بينة إلا أن الكثير من العلماء فى عصرنا هذا عصر العلم والمعرفة يتحاملون على القرآن الكريم فيقولون أنه جامد وثابت فالقرآن الذى أنزل منذ أربعة عشر قرنا هو هو الذى نقرأه الآن فهو لم يتغير مع تغير الزمن، ولا يتمشى مع تقدم العلم، ولكن لو فكر هؤلاء قليلا ونظروا إلى الأمور نظرة عادلة خالية من الحقد والضغينة لا يشوبها تعصب أعمى ولا يفسدها غل فى الصدور ولا يشوبها غرور العلم لوجدوا أنه فى ثبات القرآن معجزة، وفى استقراره دليل على أنه ممن خلق الأرض والسموات العلى فهو يسير مع كل زمان رغم ثباته ويسير مع تقدم العلم جنبا إلى جنب.

فهو ثابت فى ألفاظه وآياته، جديد دائما فى معانيه، يوافق ما يصاحبها من تقدم فى العلم، ورقى فى المعرفة. فهو قد كانٰ فى علمه سبحانه وتعالى قبل كل الأزمنة.

فهو يحتويها كلها فهو يجمع الماضى البعيد بالحاضر القريب، ويجمع الحاضر بالمستقبل، يفسره علم اليوم ويؤيده ما يكشف عنه التقدم العلمى فى الغد. وهكذا يفسره العلماء فى كل عصر من العصور فهو ثابت أبدا وإعجازه فى ثباته، أما العلم فبعيد عن الثبات فهو متغير دائما بتغير الزمن وتغير وسائل البحث. وهكذا يجد العلماء فى القرآن الكريم فى كل عصر من العصور ما يبحثون عنه، ويفكرون فيه ويفسرون فيجدون ما لم يجده من سبقهم ويستكشفون فيه ما لم يصل إليه من تولى قبلهم. فهو جديد دائما رغم قدمه عظيم دائما رغم ثباته معجز دائما لم يصل، ولن يصل العلم إلى كل ما فيه من معان وأسرار.

وتبدو عظمة القرآن وإعجازه فى المنهج الذى ينهجه فى الدعوة والهداية والطريقة

التى يسلكها فى تبشيره ووعيده فهو يتحدث إلى الإنسان أولا ليعرفه بمن خلقه، ومن أوجده ومن أى شئ خلقه لأن هذا الأمر هو أول ما يجيش فى صدر الإنسان منذ طفولته. بل هو فى الحقيقة أول ما شغل بال المفكرين والعلماء منذ القدم ولا يزال يشغل بالهم وتفكيرهم حتى وقتنا هذا، وهكذا كان أول ما نزل من آى الذكر الحكيم:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾ (العلق ١ ـ ٥)

وهكذا يقول سبحانه وتعالى لنبيه أن يقرأ باسم ربه الذى خلقه وخلق الإنسان من علق، وهكذا إذا اعترف الإنسان بأنه مخلوق إذاً لابد وأن يكون له خالق.

فإذا اطمأن الإنسان لخالقه وآمن بوجوده وقدرته يدعوه القرآن الكريم للعلم والتعلم وأنه سبحانه وتعالى خلقه وعلمه. وما لا يعلمه الإنسان كثير وكثير ولهذا كان لابد وأن يستمر فى طلب العلم والمداومة على البحث والدرس لأن طريق العلم هو الطريق السهل المفتوح على مصراعيه الذى يؤدى إلى الإيمان العميق. وهكذا كانت الحكمة فيما يدعو إليه القرآن الكريم فى أكثر من آية الى التفكير فى خلق الله والتفكير فى سمائه وكيف رفعها وفى الأرض وكيف بسطها، وفى الحب والنوى وهو فالقه ومنبته. وفى الحيوانات والدواب وقد جعل عليه رزقها وهيأ لها مستودعها ومستقرها. بل هناك ما هو أكثر من ذلك وأعظم عندما يقسم سبحانه وتعالى بالقلم وما يكتبون:

﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ (القلم ١ ـ ٤)

وهكذا يدعو القرآن الكريم فى كثير من آياته إلى التفكير والتدبر وإلى النظرة الفاحصة لكل ما فى الوجود من موجود حتى يعرف الإنسان أن كل ما يراه وما يلمسه فى هذا الوجود لابد وأن يكون له موجد ولابد وأن يكون أكبر وأعظم من كل الوجود

وما في الوجود. وعندما يسأل الناس محمدا عليه الصلاة والسلام قائلين إنك تقول أن الله قد خلق الخلق فمن الذى خلق الله وينزل الوحى على الرسول ليقول:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ (الإخلاص ١ ـ ٤)

وهكذا ترتفع هذه الآيات البينات بجلاله سبحانه وتعالى فوق كل الشبهات فهو واحد أحد، واحد صمد، وهو لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد. وهكذا لابد وأن يكون الله واحدا لا إله غيره.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾ (الإسراء ٤٢ـ٤٣)

وهكذا ينفرد الله بوحدانية لا يشاركه فيها مشارك، وأنه هو خالق هذا الكون وباعث الحياة ويقول القرآن الكريم:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ (الحديد ٣)

ثم استمعوا لقوله سبحانه وتعالى وهو يسأل ويجيب ليؤمن من أراد الله أن يشرح صدره للإيمان فيرى الإعجاز والمنطق الواضح المقنع السليم فلا لبس ولا غموض

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣٤ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥﴾
(يونس ٣٤ ـ ٣٥)

حتى إذا استقرت النفوس وهدأت الخواطر وعرف الإنسان طريقه ازدادت معرفته بالله وعرف ما في قوله سبحانه وتعالى من إعجاز:

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾

(البقرة ٢٥٥)

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ (غافر ١٩)

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ (الأعراف ٨٩)

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾ (الأنعام ١٠١)

وغير ذلك من الآيات الكثيرة التى تبين عظمة الله وسعة علمه وأحاطته بما نخفى وما نعلن. ثم استمعوا لقوله سبحانه وتعالى وتقريعه لمن يدعى بأن هناك خالقا غير الله فيقول انهم ليسوا عاجزين فقط على أن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له بل هم غير قادرين إذا سلبهم الذباب شيئا أن يستردوه

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾

(الحج ٧٣)

وتتمثل عظمة الله سبحانه وتعالى فى ثوابه وعقابه فقد أعد سبحانه للمحسنين والمحسنات جنات تجرى من تحتها الأنهار. وأعد للمسيئين والمسيئات نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ (الرحمن ٤٦)

ويقول أيضا :

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ * (فصلت ٤٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ

ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾
(البروج ١١ ـ ١٤).

وهكذا تدرك العباد رحمة الله فيتبع ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ بقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾.

ثم استمعوا لوعيده سبحانه وتعالى الذى تقشعر منه جلود الأبدان:

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ (الكهف ٢٩)

ثم فلنستمع لرحمته سبحانه وتعالى بعد هذا الوعيد إذ يقول:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾
(الكهف ٣١)

ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى:

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَـٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ (النساء ٥٦ـ٥٧)

وهكذا يشتد القرآن الكريم فى وعيده ثم يزيد بسطا لرحمته تعالى حتى تطمئن نفوس العبيد وهكذا يحدثنا سبحانه وتعالى:

مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ (٢٣).

(الزمر ٢٣)

فما أبدع هذا التصوير لتأثير القرآن فى النفوس، وما وراء ذلك التأثير من خوف تقشعر منه الجلود، ثم تلين ثم تهتدى إلى طريق الصواب طريق الحق والنور.

ولا تقف رحمة الله عند هذا فحسب وحاشا أن تكون لرحمته حدا أو حدود استمعوا معى إلى قوله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾

(الزمر ٥٣)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١٨٦)

(البقرة ١٨٦)

وهكذا يكون حديث الإله القادر فهو قريب من عباده يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ويغفر الذنوب جميعا والآيات الدالة على رحمته كثيرة تتناسب مع عظمته وقدرته. ألا يقرأ القرآن من يريد أن يعرف حقيقة ما فى هذا القرآن من إعجاز عندئذ يدرك تمام الإدراك أنه من عند الله الرحمن الرحيم، فهو يدعو إلى الخير والإيمان بأسلوب يصل إلى أعماق القلوب.

ودعوة القرآن إلى الهداية والخير لا تتم بصورة أوامر عنيفة صارمة رغم أنه قادر على كل شئ بل هو يدعو بالكلمة الطيبة والكلمة الطيبة تفعل فى النفس الطيبة أكثر مما تعمل الكلمة القاسية الجامدة. استمعوا لقوله سبحانه وهو يتحدث إلى موسى وهارون فيقول لهما: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ (٤٣) ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ

أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ (طه ٤٣ ـ ٤٤)

وعندما يقول:

رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ (طه ٤٥)

يقول لهما سبحانه وتعالى:

قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾
(طه ٤٣ ـ ٤٧)

ويتحدث القرآن الكريم عن الكلمة الطيبة فيقول أنها كالشجرة الطيبة:

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾
(سورة إبراهيم ٣٤ ـ ٣٥)

أما عن الكلمة الخبيثة فيقول سبحانه وتعالى:

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾
(إبراهيم ٣٦)

وهكذا كانت دعوة الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ويقول سبحانه وتعالى:

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾
(آل عمران ١٥٩)

لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

(البقرة ٢٥٦)

أما عن بلاغة القرآن وسحره وتأثيره فى النفوس فاستمعوا لعمر بن الخطاب عندما بحث عن ندمائه وأصدقائه فلم يجدهم ويبحث عن ساقيه فيقول له أحدهم:

إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ

(المائدة ٩٠)

فيغضب عمر ويقول أن هذا كلام محمد ويقسم أن ليقتلن محمدا بسيفه ولكنهم يخبروه بأن أخته فاطمة، وزوجها سعيد بن زيد قد أسلما وتابعا محمدا على دينه فيذهب عمر إليهما غاضبا فيستمع إلى خباب وهو يقرأ عليهما القرآن:

طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾

يصل إلى قوله سبحانه وتعالى:

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ (طه ٢ ـ ٨)

عندئذ يشعرون بمقدم عمر فيرتكبون ويخفون الصحيفة التى كانوا منها يقرأون ولكن عمر يبطش بسعيد فتقوم فاطمة لتمنع أخيها عن زوجها فيصيبها ما أصابه. عندئذ يتحداه الإثنان فى شجاعة قائلين له أنهما أسلما وآمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام إلا فليصنع بهما ما يريد. ولكن ما سمعه عمر من سورة طه لا يزال يدوى فى أذنيه فيشغل باله وتفكيره. وهو من غير شك قد تأثر بما سمع ولكنه يكابر ويغالط ويطلب منهما إن يرياه الصحيفة التى كانا منها يقرئان فيأخذها منهما ويقرأ:

ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ

لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا (طه ٨-١٠)

إلى أن يصل إلى قوله سبحانه وتعالى:

فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ (طه ٢٦)

عندئذ تخشع نفس عمر وينشرح صدره ويذهب إلى رسول الله صلوات الله عليه ليقول يا رسول الله جئتك مؤمنا بالله ورسوله وبما جئت به من عند الله.

وعندما يذهب عتبة إلى النبى عليه الصلاة والسلام ليعرض عليه المال والشرف والملك والسلطان فيطلب منه صلوات الله عليه أن يستمع إلى ما يتلو من قرآن كريم فيقول:

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ (فصلت ١ - ٧)

وينصت عتبة ويستمع وهو مأخوذ بما سمع ويستمر رسول الله فى تلاوته للقرآن ويقول: (يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك) ويذهب عتبة إلى قومه بوجه غير ذلك الوجه الذى غادرهم به. ويسأل أبو جهل ما وراءك يا أبا الوليد فيقول عتبة أنى سمعت قولا ما سمعت مثله قط واللات ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعونى وأجعلوها بى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه. ويقول أبو جهل معقبا «سحرك واللات يا أبو الوليد» ولكن عتبة يستمر ويقول لقد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة

بعد. لقد كان محمد فيكم أمر غلاما حدثا أكرمكم خلقا وأصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم كاذب وساحر ومجنون.

ثم استمعوا إلى قريش وهى تسأل النبى عليه الصلاة والسلام عن الروح ما هى فيجيبهم صلوات الله عليه أنه سيخبرهم بما سألوا عنه غدا. ولكن الوحى ينقطع عن رسول الله خمس عشرة يوما حتى يتجه رسول الله إلى ربه ويقول: (أى رب اليك أشكو بلائى. أى رب أبعث إلى وحيك أبعث إلى وحيك. لقد سألونى عن الروح ولا أعلم بما أجيب. أى رب انسيتنى اللهم إنى لفى بلاء اللهم إنى لفى بلاء) فيستجيب سبحانه وتعالى ويأتيه جبريل عليه السلام فيقول له رسول الله عليه الصلاة والسلام (لقد اخبست عنى يا جبريل حتى سؤت ظنا) فيوحى إليه جبريل عليه السلام:

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

(مريم ٦٤)

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

(الكهف ٢٣-٢٤)

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

(الإسراء ٨٥)

ولكن قريشا لا تجد فى هذا الرد ما يشفى صدورهم ويقول عتبة والله ما هو بعاجز. وما كذبكم فى هذا شيئا. إن الروح لا يمكن أن تكون من أمر بشر. وما كان عليه لو أنه نبى كاذب أن يقول قولا أو يصف لكم وصفا يرضيكم ويسكتكم به.

وفى هذا الرد ما يكفى ويزيد فمحال أن تكون الروح إلا من أمر الله. وغياب الوحى هذه المدة الطويلة دليل على أن الوحى من غير ذات النبى إذ لو كان من ذاته لأخبرهم برأيه هو فى اليوم التالى كما قال عليه الصلاة والسلام ووعد. ولكنه لم يستطع أن يفى بما وعد لأن الوحى من عند الله وهكذا يحدثه الوحى:

وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

(الكهف ٢٣-٢٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾

(سورة النساء)

(٣)

إعجاز القرآن فى ثباته

القرآن الكريم كلام الله المعجز لخلقه من إنس وجان فى أسلوبه وبيانه، وفى لغته وآدابه، وفى قصصه وشريعته، وفى حكمه وهدايته، وفى أوامره ونواهيه كيف لا؟ وهو كلام الله أنزله على سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات الى النور، ومن الجهالة إلى العلم، ومن التنافر والشقاق إلى الألفة والوداد وليهديهم إلى طريق الحق وطريق الرشاد.

نزل القرآن الكريم على النبى الأمى بلسان عربى مبين متحديا العالم كله بأن يأتوا بمثله أن استطاعوا حتى إذا عجزوا قال بل سورة حتى إذا عجزوا قال بل آية فيعجزون ويقولون واليأس يملأ قلوبهم.

لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ (فصلت ٢٦)

وكانوا إذا سمعوا القرآن نظر بعضهم الى بعض قائلين هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون.

وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ (سورة التوبة ١٢٤ ـ ١٢٥)

تحامل العلماء على القرآن وقاموا بحملة كبيرة فى عصرنا هذا، عصر العلم والمعرفة، عصر الكهرباء والراديو والتليفزيون، عصر الصواريخ وسفن الفضاء، وصفوا القرآن بالجمود، وعابوا عليه الثبات، وأخذوا عليه الاستقرار. ولكنهم لو فكروا قليلا ونظروا إليه نظرة خالية من الحقد والضغينة، لا يفسدها تعصب أعمى أو غل مستقر فى الصدور، نظرة بريئة لا يشوبها غرور العلم أو الشعور بالحقد والتعالى بما وصل إليه العلم من رقى وتقدم لوجدوا فى هذا الجمود قوة ولرأوا هذا الثبات معجزة، وفى ذلك الاستقرار دليلا على أنه ممن خلق الأرض والسموات العلى، الرحمن على العرش استوى، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينها وما تحت الثرى. ولعرفوا أنه رغم ذلك الجمود، وذلك الاستقرار، وهذا الثبات يسير مع كل زمان ويساير كل عصر. فهو ثابت أبدا يزداد مع مرور الزمان قوة ومع تغير الأيام عزة ورفعة ومع تقدم العلم إعجازاً كيف لا. وهو مع ثباته يسير دوما مع الرقى العلمى، يتفق مع الحقائق الكونية والاجتماعية. فإذا علمنا ذلك وأدركناه علمنا أنه كلام الله المنزل، كان فى علمه جلت قدرته قبل كل الأزمة فهو يحويها كلها، ويتسع لها كلها فهو يسير معها يصاحب ما يأتى به العلم من تقدم ومعرفة. يجمع الماضى البعيد بالحاضر القريب يفسره علم اليوم ويؤيد ما سيكشف عنه البحث فى الغد. وفى هذا دليل على القوة والإعجاز. وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفسر من القرآن إلا القليل وكلامه وحى يوحى فكان صلوات الله عليه يبين ما في كتاب الله من أوامر ونواهى ويشرح ما فيه من شعائر وشرائع عملا بقوله تعالى:

وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (النحل ٤٤)

وما بقى بعد ذلك تكشفت آياته على مر الأيام عما تحتويه من معجزات تشهد بأنه تنزيل من رب العالمين آيات بينات فى صدور الذين أتوا العلم وتكفل سبحانه وتعالى بحفظه حيث يقول:

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ (الحجر ٩)

والعلم مهما كان جزء من الوجود فهو جزء من كل مما وراء الكل. وكما نعرف من تاريخ العلوم أن الإستقرار والثبات لا يلازمان العلم بأى حال من الأحوال. فما هو علم اليوم هو فى الغد القريب بعيد عن الصواب وما هو حقيقة نراها اليوم فهو فى الغد القريب يصبح شكا وتخمينا.

ولذلك قد احتاط كثير من العلماء ومنهم المرحوم الأستاذ الدكتور محمد ولى يوضح كلمة «كأن» أمام كل حقيقة علمية دفعا للشبهة واحتياطا لما قد يكشف عنه الغد من حقائق. فلو أننا وضعنا كل ذلك أمام أعيننا لوجدنا فى مسايرة القرآن الكريم لكل زمان ومطابقته لكل تقدم علمى إعجاز وأى إعجاز ولعرفنا أنه لحق تنزيل من حكيم خبير، وأنه فطرة الله التى فطر الناس عليها.

هذا القرآن الكريم الذى استطاع أن يخلق من الأمة العربية فى وقت قصير خير أمة أخرجت للناس فأرتقت إلى ذروة المجد وامتدت حضارتها وفتوحاتها الى الشرق والغرب وأصبح فيها العلماء الذين ارتقوا إلى ذروة العلم فكان فيهم الفقيه والأديب والشاعر والمؤرخ والطبيب والمفكر فى ملكوت السموات والأرض، ويبحث فيما على الأرض وما تحت الأرض، وهكذا ارتقت الأمة العربية وأصبحت متحضرة قوية يأخذ عنها العالم المدنية وتنقل عنها أوروبا الحضارة وتتعلم منها العلم.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن القرآن الكريم ليس بكتاب طبيعة أو كيمياء أو كتاب فى علم الحيوان أو فى علم النبات، وما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ليكون كذلك، ولكنه كتاب من عند الله أتى بأصول وقواعد عامة تشير الى سنن طبيعية تدفع الإنسان إلى البحث والدراسة فى الكون وما فيه وما عليه كما قال سبحانه وتعالى فى سورة فصلت:

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ (فصلت ٥٣)

وفي سورة الروم يقول سبحانه وتعالى:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ
لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ
أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ
ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ (الروم ٢٠-٢٧)

ويقول جلت قدرته في سورة يس:

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ
مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ
﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾
وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾
لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ
لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ

نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾
(سورة يس ٣٣ ـ ٤٤)

هذا قليل من كثير مما حدثنا به القرآن الكريم عن الكون ونظامه وقدرة الله وجمال مخلوقاته فإذا بالإنسان ينتقل من النظرة السطحية إلى النظرة العميقة، وينتقل من الظاهرة الطبيعية إلى الدرس والبحث، وَمن جمال الكون إلى كمال الخالق، ومن دقة الصنعة إلى عظمة الصانع.

وإذا كان من صفات العالم العصرى الرغبة فى الدراسة والمعرفة فإن القرآن الكريم يقول للإنسان فى سورة طه:

وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

ويقول أيضا فى سورة الكهف:

قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾
(الكهف ١٠٩)

والأمثلة على جهل الإنسان كثيرة وليس أدل على جهله وعجزه وقلة حيلته وعجز حواسه وقصورها عن إدراك الحقيقة الملموسة المتفق عليها. فتلك العين التى تنظر الى الشمس فتراها قرصا صغيرا مع علمنا بأنها أكبر من الأرض مرات ومرات. وننظر الى الظل فنراه ساكنا ثابتا وهو فى الحقيقة فى حركة دائمة. وتلك الأذن التى لا نستطيع أن تدرك أو تسمع ما فى الهواء من أصوات وأنغام يحملها الأثير إلى كل مكان يستطيع جهاز الراديو الصغير أن يلتقطها ويسمعنا إياها. فإذا هدأت الحركة ونامت الكائنات وعم الكون السكون التام والهدوء الشامل قال الراديو إن ما تحسونه وهم وسراب فالأصوات تملأ الجو والغناء يعلو من كل حدب وصوب والضوضاء منتشرة فى كل مكان فأسمعونى أصدقكم القول.

أما حاسة اللمس فكثيرا ما تخطئ ولعل أكثرنا يذكر تلك التجربة البسيطة التى يعرفها الطالب العادى، وهى أننا إذا وضعنا يدا فى ماء بارد واليد الأخرى فى ماء ساخن ثم وضعنا الاثنين بعد ذلك فى ماء وسط بين الإثنين أحست الأولى بأنه ساخن وأحست الأخرى بأنه بارد. والماء واحد والشخص واحد. ويقول زئبق الترمومتر أن اليد الأولى مخطئة والثانية مخطئة أيضا بالماء وسط بين الإثنين.

وهكذا كل حاسة من الحواس تخطئ ويظن صاحبها أنها على صواب.

ليس هذا هو كل شئ بل إن حكمنا على الأشياء بإختلاف استعداد تلك الحواس. ولنضرب بذلك مثل بسيطا هو مصباح الكهرباء المتقد. رآه مبصر فقال أنه نور وضياء ولمسه أعمى فقال أنه جسم ساخن إنه نار ويقول الذى عنده علم أنها الكهرباء. ولو سألناه ما هى هذه الكهرباء لحدثنا كثيرا عنها مبتعدا كل البعد عن كنهها وماهيتها لا لشئ إلا لأنه يعجز عن إدراك ذلك السر فالعلم لا يعرف عن الكهرباء أكثر مما تحدثه من نتائج وعند ذلك ندرك قوله سبحانه وتعالى:

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ (فصلت ٥٣)

ويقول جلت قدرته أيضا:

وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ (الإسراء ٨٥)

وبالرغم من كل هذا نرى كثيرا من الناس لا يرون النور فى ضوء النهار ويغمضون عيونهم حتى لا يبهرهم نور الحقيقة يملأ الدنيا، وما فيها ويغلقون قلوبهم حتى لا يدخلها ذلك النور، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

وكثير من الناس، وكثير ما هم، لا يرون طريق الحق رغم وضوحه، وهكذا يعيشون بعيدون عن الحق يسبحون فى بحر من الشك والوهم فلا يسعفهم التفكير، ولا يصل

بهم العقل إلى إدراك سر ذلك الكون العظيم الذى ينطق كل شئ فيه بقدرته سبحانه وتعالى. ويسبح فيه كل شئ بوحدانيته وعظمته ويشير كل شئ فيه إلى تدبيره وحكمته ولكنهم كما يقال فيهم طبع على قلوبهم وعقولهم وعيونهم فهم فى غفلة لا يبصرون ولا يعقلون فلا يرون فى أنفسهم آية، ولا يرون فى الشجر الأخضر آية ولا فى زهره وينعه آية، ولا فى الشمس آية، ولا فى القمر آية، والله سبحانه وتعالى يقول:

وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾

(الذاريات ٢٠_٢١)

ويقول سبحانه وتعالى:

سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ (العنكبوت ٢٠)

وأنى لأذكر منذ أعوام مضت وكنت أشرح للطلبة مظهرا من مظاهر الحياة يتمثل فى سريان الدم داخل الأوعية الدموية فى لسان الضفدعة الحية، وكان المنظر رائعا حقا. الكريات الدموية الحمراء والبيضاء تتدافع وتسير داخل الأوردة والشرايين كأى زحام من البشر فى أشد الأوقات زحاما تتزاحم وتتدافع أفراده، وهكذا كانت كل خلية دموية تسير الى هدفها الذى تنشده لتؤدى عملها الذى خصصت له. وكنت أترك الفرصة لكل طالب ليرى عظمة الحياة فى هذا المظهر الرائع من مظاهر الحياة. وإذا بطالب يقبل على مهل بخطوات هادئة بطيئة متزنة جعلنى أتوسم فيه حسن التفكير ورجاحة العقل ثم انحنى على المجهر وطال إنحناؤه فأستبشرت خيرا، وظننت أن ما يراه يبهره ويدهشه. وإذا به يرفع رأسه ناظرا إلىّ بعين متسائلة وهو يقول وماذا فى هذا؟ فقلت يا بنى إنهذا مظهر من مظاهر الحياة لا أريد أن تراه بعينك ولكن أريد أن تراه بقلبك، وأن ما تراه بقلبك، وأن ما تراه العين، ويدركه القلب أكثر بكثير مما تراه العين ولا يدركه القلب.

ثم اختليت بنفسى أحدثها وقلت كم من إنسان كهذا الإنسان يمر على آيات

كثيرة من آيات الله كل صباح وكل مساء، ينظر إلى الدنيا وما فيها ولا يصل الى حقيقة ذلك الوجود الذى هو نفسه جزء منه ولا يدرك حقيقة موجد هذا الوجود والذى بغير قدرته لم يكن لهذه الدنيا، وما فيها، ومن فيها وجود. وكم من إنسان يدب على الأرض ويأكل من خيراتها ويشرب من مائها، ولكنه يقول أنها الطبيعة التى خلقته وأوجدته ونسى أو تناسى، ولم يكلف عقله مشقة التفكير، ولم يكلف نفسه مشقة السؤال من الذى أوجد الطبيعة، ومن الذى أنشأها أول مرة والمثل الشائع يقول أن الله إن لم تكن العين قد رأته فإنه بالعقل قد عرف.

وإن لنا فى إبراهيم عليه السلام أسوة حسنة فقد نظر إلى الدنيا وما فيها. نظر إلى الأرض والماء وتطلع إلى الشمس والقمر وعرف من ذلك أن الله حق فآمن به عن عقيدة راسخة وامتلأ قلبه بنور الإيمان ونور اليقين استمعوا لقوله تعالى:

وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٧٩﴾

(الأنعام ٧٥-٧٩)

وهكذا يؤمن إبراهيم عليه السلام إيمانا لا لبس فيه. إيمانا بمن خلق الأرض والسموات العلى فآمن بالله وعرف أن لهذا الكون خالق أعظم من الدنيا وما فيها لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار ليس كمثله شيء.

وعندما يؤمن إبراهيم عليه السلام، ويطمئن بإيمانه، ويمتلئ قلبه بنور الإيمان، ونور اليقين فتمتلئ نفسه بالقوة، ويزداد بمعرفة ربه رفعة وعزة فإذا به يقف بين قومه وحيدا فى قوة وعزم يناقشهم فى عبادة الأصنام ويدعوهم إلى عبادة الله عز وجل ويحدثنا

القرآن الكريم عن ذلك فيقول:

* ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾﴾

(الأنبياء ٥١ ـ ٥٦)

وعندئذ ينتقل إبراهيم عليه السلام من المجادلة بالمنطق السليم بعد أن تولى قومه مدبرين ويلجأ إلى عمل لا يلجأ إليه إلا كل مؤمن يعتز بإيمانه قوى بعقيدته فيقـول:

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

(الأنبياء ٥٧ ـ ٦٢)

وهنا تسنح الفرصة لإبراهيم عليه السلام فيجد الحجة التى دبر لها قد وضحت والبينة التى خطط لها قد أثمرت فيقول:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

(الأنبياء ٦٢ ـ ٦٧)

ولكن قوم إبراهيم وقد استولت عليهم الكبرياء الكاذبة وأعوزتهم الحجة فلا يجدون وسيلة غير العنف فيقولون:

﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ (الأنبياء ٦٨).

عندئذ تأتى رحمة الله التى تسع كل الوجود وتشمل كل موجود فى ذلك الوجود فيقول سبحانه وتعالى:

﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَخۡسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

(الأنبياء ٦٩_٧١)

وهنا يظهر إيمان إبراهيم عليه السلام فى أقوى صورة فلا يجزع، ويتقبل قضاء الله بعزم وحزم، وهو يعلم علم اليقين أن الله غالب على أمره، وأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. فتصبح النار بردا وسلاما وينجو إبراهيم من النار. وفى نجاته هذه معجزة وفى خروجه منها سالما معجزة وأى معجزة. ولكنها القلوب التى مرضت تأبى إلا أن تستمر فى غيها وحقدها وجهلها وغضبها فلا يؤمنون ولا يسلمون وتبقى مشكلتهم كما هى وتبقى قلوبهم مغلقة مظلمة لأنهم أبوا أن يستجيبوا لمنطق العقل ومنطق الهداية والإسلام.

وعندما يمتلئ قلب المؤمن بالإيمان فتمتلئ نفسه بنور الإيمان ويمتلئ قلبه بنور اليقين فلا يرى إلا خيرا، ولا يقول إلا خيرا استمعوا إلى إبراهيم عليه السلام وهو يتحدث عن ربه كما يحدثنا القرآن الكريم:

﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾﴾

(الشعراء ٧٥ _ ٧٩)

وهنا ينتقل عليه السلام الى موضوع آخر ويظهر فى آدب الحديث عن رب العالمين

فيقول:

وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ (الشعراء ٨٠)

ولا يقول وهو يمرضنى وهو يشفين ولكنه يقول فإذا مرضت فهو يشفين ثم يعود مرة أخرى ويقول:

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ (الشعراء ٨٢)

ولم يقل الذى يغفر لى خطيئتى يوم الدين فيكون قد كتب الغفران لنفسه والغفران حق من حقوق الله إن شاء أنعم به على عباده. ولهذا يقول إبراهيم عليه السلام

وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ (الشعراء ٨٢)

ثم ننتقل إلى درجة أخرى من درجات الإيمان يضرب لنا بها إبراهيم عليه السلام أحسن الأمثال. انظروا اليه وقد رأى فى منامه أن يذبح ابنه اسماعيل الذى رزق به على كبر كما يحدثنا القرآن الكريم:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾

(إبراهيم ٣٩)

ويقول القرآن الكريم فى آيات أخرى:

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ

﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ (الصافات ١٠٠ـ١١١).

يا سبحان الله أب يرزق بابن على كبر ثم يرى فى المنام أن يذبح ذلك الابن العزيز الذى كان يتمنى أن يرزق به، ولكنه يصدع بما يؤمر لأن رؤيا الأنبياء حق. ويسير الأب بابنه العزيز ويصدقه القول ويخبره بما هو مقبل عليه فيقول الإبن:

يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾

(الصافات ١٠٣)

ويسير ابراهيم راضيا بقضاء الله ويسير معه ابنه المؤمن والمستسلم لقضاء الله، وهنا يناديه رب العالمين الرحمن الرحيم:

أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ (الصافات ١٠٧)

وهكذا يعيش المؤمن معتزا بإيمانه قويا بعقيدته.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى
تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

(سورة الحجرات)

(٤)

الإسلام والإنسان

الإسلام دعوة صريحة واضحة تخاطب العقل والوجدان وتعتمد على النظر والتفكير فى خلق السموات والأرض لمعرفة الله معرفة حقيقية، وأنه رب واحد لا شريك له، ويحدثنا القرآن الكريم عن ذلك فيقول:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾

(آل عمران ١٩١)

والإسلام كذلك أنزل للناس كافة لا لشعب من الشعوب ولا لأمة من الأمم، ولكنه للدنيا كلها يدعو إلى التوحيد، ويدعو إلى عبادة الله ـ عز وجل ـ أن أعبدوا الله الذى خلقكم والذين من قبلكم.

ويختلف الإسلام عن اليهودية التى أنزلت على بنى إسرائيل دون باقى الشعوب وهى وإن كانت تدعو إلى التوحيد إلا أنها وقد قصد بها هؤلاء القوم، فلابد وأن تكون مسايرة لهم مطابقة لأعمالهم متفقة مع طباعهم وتفكيرهم. وبنو إسرائيل كما يحدثنا التاريخ كانوا عباد أوثان يؤمنون بالتعدد والتجسيم، تملأ قلوبهم المنفعة الخاصة والحرص على الدنيا وما فيها، المادة هدفهم والحصول عليها بأى وسيلة وبأى ثمن منتهى آمالهم.

فهم لهذا لا يرون فى الدين إذا آمنوا به ـ إلا عنصرية ممقوتة ولا يبتغون من دينهم إلا تشريعا فى المعاملات ـ يستحلون به أموال سواهم من البشر. أما محبة الإنسان للإنسان والنظرة إلى الإنسان كإنسان خلقه الله، وهو الذى خلق الناس جميعا. والإعتراف بالأخوة الإنسانية التى أساسها أن كل الناس من أب واحد، وأم واحدة، وأن فى هذا الأصل الواحد رباط يربط البشر جميعا من الحب صاغته نفحة الحياة الأولى التى أودعها الله النفس البشرية، وجعلها تنتقل من جيل إلى جيل. كل هذا لم يخطر ولن يخطر على بال، ولم يدر بخلدهم ولم يصل ولن يصل إليه وعيهم، وكلنا يعرف عن بغضهم الممقوت للناس جميعا الشئ الكثير. فهم أغتصبوا فلسطين وهم الذين شردوا أهلها ونهبوا أرضها واعتدوا على حرماتها بإسم الدين وبأنها أرضهم هم، أرض الميعاد، وهم الذين اشعلوا نار الحرب فى الشرق، وهم أداة العدوان يحركها الغرب كما يشاء ويريد لتغتصب أرض العرب وأملاك العرب، وتعتدى على مقدساتهم وما فعلوه ويفعلوه فى القدس يعرفه جيلنا وشبابنا والعجيب أنهم يعتقدون أن الله هو ربهم وحدهم يعبدوه لينصرهم على كل من فى الوجود من أمم وشعوب إلا فليقرأ من يريد المزيد ما هو مكتوب ومدون فى التلمود. وهكذا كانت سياستهم وهذه كانت أخلاقهم وشعب هذا شأنه لا يصده عن غيه إلا آيات من النذر والوعيد، ولذا كانت أقوال أنبيائهم المتعاقبين لا تتحدث إلا بحديث التخويف والتحذير فهم قوم لا يعبدون الله ابتغاء مرضاته ولكنهم يعبدونه خوفا من عقابه وعذابه. فهم لا يعبدونه رغبة ولكنهم يعبدونه رهبة.

ثم تجئ المسيحية لتفتح أمام الناس آفاقا جديدة من الحب بعيدة عن هذه النفعية المطلقة والأنانية المتفشية فى القوم فتدعوهم إلى الحب الذى حرموه وتدعو القلوب الى الإيمان بالله لأنه باعث الحياة وخالق، الوجود وأنه سبحانه وتعالى المثل الأعلى فى كل الوجود.

ثم يأتى الإسلام ليكون دينا للدنيا والآخرة على السواء ينظر إلى الإنسان كإنسان فى

صورته البشرية الحقيقية لا يحرمه من وجوده، ولا يعزله عن ما حوله من خيرات الدنيا فهو ينظر إليه كمخلوق يأكل ويشرب، يصيب ويخطىء، يحب الشهوات ويرغب فى المال والبنين ومن غير الخالق يعرف أسرار ما قد خلق، وما جلبت عليه النفس البشرية وما هى قد انطوت عليه من خصال.

ويحدثنا القرآن الكريم عن أبنى آدم حديثا يكشف عن النفس البشرية منذ القدم فيقول جلت قدرته:

* وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾

(المائدة ٢٧ ـ ٣١)

وهكذا النفس البشرية منذ القدم يتفاعل الخير والشر فيها. أخ يهدد أخاه بالقتل فيرد عليه قائلا:

لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

ولكن بالرغم من هذا العتاب الأخوى الجميل يقتل الأخ أخاه، ويأتى الغراب ليبحث فى الأرض ليوارى غرابا آخر فتعود النفس البشرية الآثمة الى رشدها، وتندم

على فعلها ويصحو ضميرها فيقول الأخ القاتل: (يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى فأصبح من النادمين).

هذه صورة دقيقة واضحة عن النفس البشرية التى لا تزال تنتقل من جيل الى جيل ومن الآباء إلى الأبناء، وهى وإن كانت فى أحسن صورة لها تميل الى الخير وتحاول جاهدة أن تبتعد عن الشر وتتجنبه. ولكنها نفس بشرية على كل حال تحب وتكره. تحب المال وتحب الدنيا فهى لم تخلق لتكون خالصة من قيود الجسد وشهواته ولا تستطيع أن تقف صامدة أمام طلباته الملحة التى لا تنتهى من نعيم الدنيا وما فيها. استمعوا لقوله تعالى:

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ (آل عمران ١٤)

وهنا تظهر عظمة الإسلام فى نظرته للإنسان معترفا بإنسانيته وبشريته فيخاطبه ويكلفه بما لا يخرج عن طاقته، فهو لا يطلب منه أن يكون راهبا متعبدا يسكن الصوامع ويبتعد عن الناس والدنيا، ويسعى جاهدا طالبا للآخرة ولكنه يدعوه للعمل ويدعوه للصلاة والزكاة والصيام، ويحضه على التواضع ويبيح له الزواج ويحرم عليه الزنا ويدعوه للعمل فى قوله تعالى:

وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ (التوبة ١٠٥)

ويقول سبحانه وتعالى فى محكم آياته:

وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ (القصص ٧٧)

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ

(الأعراف ٣٢)

ويقول سبحانه وتعالى:

كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ (البقرة ١٧٢)

وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ (الأعراف ٣١)

وهكذا يبيح الله للإنسان الطيبات ويحرم عليه الخبائث، لا يحرمه من نعمة خلقها له، فالدنيا كلها مسخرة له، ماؤها وأنهارها وشمسها وقمرها وثمرها وينعها، كلها خلقت للإنسان وسخرت له ليسعد ويتمتع بها. كيف لا والله سبحانه وتعالى يقول وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

(الجاثية ١٣)

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

(النحل ١٤)

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ (الحجر ١٩-٢٠)

حتى إذا اطمأن الإنسان فى دنياه. ولم لا يطمئن ونعم الدنيا كلها خالصة له يأكل منها ما تشتهيه نفسه، ويلبس منها ما يريد، وما يروق له ويدعوه الإسلام إلى الأخوة التى تجمع الناس جميعا فكلهم من آدم. أصل واحد ورب واحد، لا فرق بين هذا وذاك ولا فرق بين أبيض أو أسمر، ولا فرق بين عربى أو أعجمى. استمعوا لقوله

تعالى:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ (الأنبياء ٩٢). ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ (الحجرات ١٣)

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (الروم ٢٠). ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ (الروم ٢٢)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات ١٠)

دعوة صريحة واضحة لا لبس فيها تدعو إلى الأخوة بين البشر جميعا، دعوة كريمة وتوجيه كريم من رب كريم عظيم، ودستور سماوى علوى لم تصل، ولن تصل إلى مستواه أرقى الأمم فى عصرنا هذا الذى يقولون عنه عصر الذرة وعصر الفضاء وسفن الفضاء. وها هى الأمم الغربية كلها، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية حيث توجد هيئة الأمم التى أصدرت وأعلنت حقوق الإنسان تحدثنا صحافتها ووسائل الإعلام فيها عن قصص التفرقة العنصرية. تلك القصص التى يندى لها جبين الإنسانية وتتألم فيها النفوس البشرية الطيبة. هذا أبيض له كل الحقوق، وهذا ملون ليس له أى حق من الحقوق حتى فى أماكن العبادة التى يجب أن تكون فيها النفوس أكثر صفاء وتنحني داخلها الرؤوس خشية ورهبة، لا يجلس الأبيض بجانب الملون.

ومن الذى أوجد ونادى بهذه التفرقة العنصرية في اللون والجنس والله الذى خلق الكل وأوجد الوجود يقول:

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات ١٣)

ولم يقل سبحانه وتعالى أبيضكم ولا أسودكم، ولكنه الإنسان الذى يدعى العدل والحرية ويقول عنه الرحمن:

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ (عبس ١٧)

وإنى لأذكر وأنا فى لندن، وكان يحاورنى زميل لى مستشهدا بما وصلوا اليه من مدنية ورحمة ما نجده من حمام وطير يحوم حولنا يأكل من أيدينا مطمئنا الينا وأنهم بذلك قد وصلوا إلى مستوى من الرحمة والإنسانية لم يرق إليه الشرق المسلم. فقلت يا سبحان الله فى بلدكم هذا تكرمون الطير وترحمونه وتجدونها جريمة من يعتدى عليه. وفى أفريقيا تقتلون النساء والرجال والأطفال وتقيمون المذابح دون شفقة أو رحمة، وفى عدن وغيرها تستحلون دماء الرجال والنساء والأطفال فأنتم والله وإن اطمأن فى بلدكم الحمام فوالله لن يطمئن إلى عدلكم فى الدنيا الإنسان الذى هو أولى بالرحمة من أى طير أو حيوان.

وها نحن فى الأمس القريب كنا نسمع عن فيتنام، وعن الغارات الوحشية التى تقوم بها الطائرات الأمريكية ونسمع كذلك عن جنوب أفريقيا وعن روديسيا، حيث تتحكم الأقلية البيضاء فى الأغلبية السوداء أصحاب الأرض وأهل البلاد. كل ذلك وهيئة الأمم ولجنة حقوق الإنسان لا يبديان حراكا ولا يصدران إستياء لا لشئ إلا لأنهما لا يستطيعان أن يصرحا بالحق ويقفا فى جانبه لنصرة المظلوم والقصاص من الظالم لأن هذا أمر صعب على النفس التى تؤمن بالتفرقة العنصرية وتكفر بالأخوة الإنسانية أما الإسلام ديننا فيدعو إلى الحق للحق ويرغب الإنسان فى التوصية بالحق والتواصى بالصبر ويقسم سبحانه وتعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ (الواقعة ٧٦)

فيقول:

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ (العصر ١ ـ ٣)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا:

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ (النساء ١٣٥)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
(المائدة ٨)

ألا فليسمع من يرى الحق ويكتم شهادة الحق فى نفسه ألا فليسمع من يدعى المدنية والرقى. ألا فليسمع قادة الغرب قول الإسلام:

كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ

ثم فلتستمع الأمم الكبرى الممثلة فى مجلس الأمن الى التوجيه الكريم لعل الله يهيىء لها من أمرها رشدا.

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ (الحجرات ٩)

وتظهر عظمة الإسلام فى نظرته للإنسان كإنسان وتتجلى هذه النظرة بوضوح فى

حديثه الى النفس البشرية التى خلقها الله لا تقبل الظلم ولا ترضى به ولا تقبل أن يتعدى عليها وهى هادئة ساكنة لا تبدى حراكا، بل لابد وأن ترد العدوان بالعدوان فيقول سبحانه وتعالى:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (المائدة ٤٥)

ويقول سبحانه وتعالى فى آيات أخرى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

(البقرة ١٧٨ ـ ١٧٩)

وهنا فى هذه الآيات يبيح الله القصاص فى قوله تعالى:

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (البقرة ١٧٨)

لترضى النفس البشرية ولتخشع وتقف عند حدها أى نفس بشرية يسول لها الشيطان أن تعتدى فتعرف أنها لو اعتدت فإن الله يبيح لمن يعتدى عليه أن يقتص، ولكن الشريعة الإسلامية السمحة، مع ذلك، تحض على العفو والتسامح والغفران، وأن من يتصدق بحقه فهو كفارة له. أما الذى يقتص فإن الله يطلب من وليه ألا يسرف فى القتل إنه كان منصورا.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾ (الإسراء ٣٣)

ثم فلنستمع إلى ما قاله النبى عليه الصلاة والسلام فى مرضه الأخير الذى قابل بعده ربه إذ تحامل على نفسه وخطب فى الناس قائلا:

(أيها الناس إلا من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه. ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبل فإنها ليست من شأنى. إلا وأن أحبكم إلى من أخذ منى حقا كان له أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس).

بوركت يا رسول الله فما أعظم، وما أروع ما أتيت به من هدى ونور أخرجت به الناس من ظلمة إلى نور الهداية، وهل أنت يا رسول الله محتاج الى كل هذا حتى تلقى ربك، وأنت طيب النفس، وأنت تعلم علم اليقين أن الله قد غفر لك، ووعدك بجنة عالية عرضها السموات والأرض، ولكنه مثل أعلى أردت أن تضربه وقدوة حسنة أردت أن يحذو الناس حذوها. طبت يا رسول الله وبوركت فى حياتك ومماتك.

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا

(سورة المائدة)

(٥)
الإسلام هو الدعوة الأخيرة

دعوة الإسلام هى الدعوة الأخيرة والدعوة الكاملة التى لا دعوة بعدها لأنها المكملة لكل ما قبلها، ويكون بذلك محمد عليه الصلاة والسلام النبى الذى لا نبى بعده خاتم الأنبياء، وخاتم المرسلين به كملت الرسالة ووصل الدين إلى مرحلة كاملة من الكمال تلك المرحلة التى إرتضاها الله لعباده دينا وشريعة وعقيدة، استمعوا لقوله تعالى:

ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا

(المائدة ٣)

ويقول سبحانه وتعالى عن الإسلام:

وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾

(آل عمران ٨٥)

ولما كانت عادة الناس منذ القدم كما يحدثنا التاريخ تأليه الملوك والأبطال وهكذا كانت الرسل تتعرض لمثل هذه التأليه فكان الناس يربطون بين رسلهم وبين الألوهية لهذا جاءت الرسالة المحمدية خالية من هذا التأليه، أو ما يشبه التأليه فى عقيدة تنزه الله عن الشرك وتؤكد وحدانيته، وتفرق بين من يعبد ومن يخلق. وبهذا أوضح الإسلام المسائل المعقدة التى كانت كثيرا ما تحتاج إلى إيضاح وتبيان فيقول القرآن الكريم فى

صراحة ووضوح:

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾

(آل عمران ٥٩)

ويقول سبحانه وتعالى:

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ
قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى
وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ
عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

(المائدة ١١٦-١١٨)

وهكذا يتحدث القرآن الكريم فى أكثر من آية مؤكدا هذه المعانى فى رسالة الإسلام ومحذرا الناس حتى لا يقعوا فى مثل هذا الخلط موضحا لهم حقيقة النبوة وبشرية الرسل فيقول لمحمد عليه الصلاة السلام:

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ
فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾ (الكهف ١١٠)

وإذا كان القرآن الكريم يقصد ببشر مثلكم أن محمدا عليه الصلاة والسلام بشر يأكل كما نأكل ويشرب كما نشرب، وهذا صحيح لا جدال فيه ولا نقاش ولكنه فى نفس الوقت يصفه بأنه بشر يوحى إليه، وأنه بهذا يمتاز عن سائر البشر جميعا بنزول الوحى والوحى لا ينزل إلا على من سمت بشريته وصفت نفسه وامتلأ بنور

الإيمان قلبه، أعده الله وهيأه لمثل هذا الأمر الكريم فأصبح مستعدا وقادرا على تلقى الوحى وأداء الرسالة وأهلا لأن يكون رسول الله ولكنه صلوات الله عليه رغم كل هذا السمو وهذه الرفعة بشر على كل حال لا يملك لنفسه نفعا ولا خيرا إلا ما شاء الله ولا يعلم الغيب ويمسه الخير كما يتعرض للشر ويقول سبحانه وتعالى فى ذلك:

﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾

(الأعراف ١٨٨)

وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فما أكثر ما أوذى لأنه يدعو إلى الحق وما أكثر ما حارب وحورب لأنه يبلغ رسالة الحق. فخاض المعارك وتعرض فيها لما يتعرض له أى محارب من الناس من نصر وهزيمة وكر وفر. ولعلنا نرى فى ذلك الكفاح، وهذا الجهاد دليل على صدق دعوته ورسالته فقد كان صلوات الله عليه آمنا فى بيته ومحبوبا بين أهله، مطمئنا بين قومه وكانوا يلقبونه بالصادق الأمين.. وهل هناك شهادة أدل على ذلك من شهادة قريش نفسها عندما اختلفوا على وضع الحجر الأسود بعد أن فرغوا من بناء الكعبة، واشتد الخلاف حتى صار القتال أقرب اليهم من الوصول الى اتفاق، ولكنهم يخافون القتال ويتحاشونه ثم يقولون فلنحتكم لأول من يدخل من باب بنى شيبة، وليكن حكمه هو الفيصل الذى نرضاه ونلتزم به. فيكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من يدخل فيقولون إنه الأمين لقد رضينا بما يقضى به بيننا. فيضع رسول الله رداؤه ويبسطه على الأرض ويضع الحجر الأسود عليه ثم يقول ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل وليأخذ كل منهم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوا الحجر فيرفعوه ويضعه صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة فى مكانه.

وهكذا كان رأى قومه فيه قبل أن يبعث أنه الصادق الأمين الذى لا يكذب أبدا. النقى الطاهر الوفى على العهد والأمين على السر.

بل نستمع إلى رأى السيدة خديجة بنت خويلد رضى الله عنهما وقد عاد رسول الله صلوات الله عليه وهو يقول زملونى فتزمله حتى إذا ذهب عنه الروع وقص على السيدة خديجة ما حدث من نزول الروح الأمين طالبا منه أن يقرأ فيقول الرسول الكريم ما أنا بقارئ، ويقول الرسول صلوات الله عليه فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى، وقال أقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (العلق ١ ـ ٥)

ويقول صلى الله عليه وسلم «خشيت على نفسى» فترد عليه السيدة خديجة قائلة (كلا والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدى الأمانة وإن خلقك لكريم وتنطلق به الى ورقة بن نوفل ابن عمها إلى آخر القصة كما ترويها كتب السيرة.

فهذا رأى السيدة خديجة فى محمد عليه الصلاة والسلام رأى الزوجة فى زوجها نتيجة للمعرفة الحقيقية التى أساسها المعاشرة والاختلاط.

ثم بعد أن كلفه الله بالرسالة يتجه صلوات الله عليه الى قريش قائلا (أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا وراء هذا الوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى) فيقولون نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذبا قط. فيقول لهم (إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد. يا بنى عبد المطلب، يا بنى عبد مناف يا بنى زهرة يا بنى تميم يا بنى مخزوم، يا بنى أسد... إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتك الأقربين. وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا لا إله إلا الله) ولكن قومه الذين اعترفوا بصدقه وبأنه الصادق الأمين الذىٔ لا يكذب أبدا يكذبونه وينصرفون.

وعلى صدقه صلوات الله عليه يشهد أيضا أبو سفيان رأس الشرك والكفر فعندما

يسأله هرقل ـ وقد أتاه كتاب رسول الله ـ عن محمد، هل كانوا يتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فيقول أبو سفيان أن لا. فيقول هرقل: أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. ويسأل هرقل أبا سفيان أيضا عما إذا كان قد أثر عن محمد غدر فيجيب أبو سفيان بالنفى فيقول هرقل: سألتك هل يقدر. فقلت: لا وكذلك الرسل لا تغدر. وهكذا ينتقل هرقل من سؤال إلى سؤال، وأبو سفيان يجيب إلى أن يسأل هرقل عما يأمرهم به هذا النبى فيقول أبو سفيان: أنه يأمرنا أن نعبد الله، ولا نشرك به شيئا، وينهانا عن عبادة الأوثان، ويأمرنا بالصلاة والصدق وينهانا عن الفحشاء والمنكر والبغى. وهكذا يستنتج هرقل من كل هذا الحديث عظمة الرسول وصدق دعواه فيقول. إن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم فلو أنى أعلم أنى أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عند قدمه.

وهكذا يترك النبى أهله وقومه وتضطهده قريش ويؤذيه الناس ويصبح صلوات الله عليه وحيدا أعزل إلا من الحق الذى جاء به، ولا ناصر ولا معين إلا من يقول له:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ (المدثر ١ ـ ٧)

وهو سبحانه وتعالى خير ناصر وخير معين ومن ينصره الله فلا غالب له. ويقف رسول الله أمام أهله وقومه وهم أئمة الكفر وحراس الشرك، وهم لا يرون فى دعوته ما يرفع من شأنهم أو يزيد من سلطانهم، وهم قد جبلوا على التفاخر بالأحساب والأنساب والشجاعة والمال والزرع والحدث وكثرة الولد. وإذا كانت الرسالة لا تؤمن لهم كل ذلك كما يعتقدون، فهى أيضا لا تحمل لحامله دنيا يصيبها أو نعيما تتوق له نفس كل راغب فى الدنيا، أو ملكا يطمع فى أن يتربع على عرشه لأنها نبوة أكبر من

الدنيا وما فيها ورسالة سماوية أعظم من العروش ومن يعتليها، والنبوة لا تورث بل هي رحمة وتكليف من الله لمن اصطفى واختار من عباده.

دعوة حديثة ونغمة جديدة يسمعها العرب. يقول لهم الرسول إن الناس كلهم سواسية كأسنان المشط. وأنه لا فضل لعربى على أعجمى، ولا قرضى على حبشى إلا بالتقوى، ودعوة كهذه تسوى بين العبد وسيده حرب، على الأوضاع التى كانت قائمة، وحرب على الرأسمالية والطبقية لا تحمل لصاحبها من الدنيا إلا جهادا وكفاحا وزهدا فى الحياة.

ثم ها هو عمه أبو طالب الذى كفله ورباه وقد أتاه أبو جهل ليقول له: يا أبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا. وأن ابن أخيك قد عاب ديننا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيك أمره.

ويسير النقاش كما تحدثنا كتب السيرة إلى أن يعرضوا عليه عمارة بن الوليد ليتخذه ولدا له بدلا من ابن أخيه. ويرفض أبو طالب أن يأخذ عمارة ويعطيهم محمدا ليقتلوه. ويذهب أبو طالب إلى محمد عليه الصلاة والسلام ويقول يا ابن أخى إن قومك قد جاءونى فى أمر هذا الدين الذى جئت به وأجمعوا على فراقى وعدوانى. فإبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق. فيقول عليه الصلاة والسلام وهو الحريص على إرضاء عمه الذى كفله ورباه، ثم هو بعد ذلك المدافع عنه وحاميه (يا عم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته).

ويبكى أبو طالب ويسأله محمد عما إذا كان خاذله هو فيقول الشيخ: كلا اذهب يا ابن أخى فقل: ما أحببت فو الله لا أسلمك لشئ أبدا.

فهل هذا شأن من يملك أمر نفسه أو من يدعى أنه يوحى إليه ولم يوحى إليه. إن

هذا والله شأن رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش تسيطر عليه قوة أقوى من الدنيا وما فيها تحركه وتدفعه وتهديه وتيسر له السبيل وتقول له:

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ (القلم ١ ـ ٤)

ثم تعالوا لننظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدعو القبائل فى موسم الحج الى عبادة رب واحد فمنهم من يؤمن، ومنهم من يعرض ويسخر ثم ها هو رسول الله يقف على منازل بنى عامر يحدثهم عن الإسلام والإيمان ويعجب كبير القوم بحديث رسول الله ويهم بالإيمان به إلا أنه يجدها فرصة سانحة مواتية لعلها تعود عليه وعلى قومه بالرياسة والسلطان. فيقول له: يا محمد أفإن اتبعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك فيجيب صلوات الله عليه إن الأمر لله يضعه حيث يشاء. فلا مهادنة ولا مسالمة ولا استسلام ولا وعد بغنيمة أو تبشير بسلطان. ولولا أنه صلى الله عليه وسلم شجاع بإيمانه قوى بعقيدته مطمئن إلى عدالة قضيته واثق من صدق دعوته لقبل ما يعرض عليه، ولكنه يقول إن الأمر بيد الله صاحب الرسالة، وصاحب الدعوة وصاحب الأمر من قبل ومن بعد.

ثم ها هى قريش ترسل إليه رسولهم ليقول له: يا محمد إنا واللات ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك. فإن كنت أنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به الشرف فينا فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك بذلنا لك من أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

وها هو اختبار آخر يأتيه بالدنيا كلها، وهذا هو الملك يعرض عليه من غير تعب أو نصب وها هم قومه يريدون أن يولونه عليهم، ويعطونه ما يريد وأكثر مما يريد. تسليم

مطلق من غير قيد أو شرط وما على الرسول صلوات الله عليه إلا أن يقول نعم فيكونون طوع بنانه ولكنه رسول الله حقا ليس مدعيا، ولا كاذبا فيقبل ولكنه مبعوث برسالة مأمور بها ممن بيده كل أمر فى الدنيا والآخرة. فيقول لهم: ما بى ما تقولون. ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا وأنزل علـىّ كتابا وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم، فإن تقبلوا منى ما جئتكم به فهذا حظكم من الدنيا والآخرة وإن تردوه علـىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم).

وتسير الأمور وتمضى الأيام والنبى مستمر فى دعوته الصادقة، ولكن قومه تستمر فى تكذيبه، ويستمر الناس فى إيذائه، ويطارده سفهاء قريش، وغير قريش بالأذى أينما ذهب وأينما اتجه حتى يبلغ الضيق برسول الله مبلغه فيقف بجوار حائط، وقد اطمأن قليلا بعد ذهاب الناس ويقول والبكاء يغلبه: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى. الى من تكلنى، إلى عبد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى، ولكن عافيتك هى أوسع لى.

أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو يحل على سخطك لك العقبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك).

ويسمع عتبة النبى فيقول: أيمكن أن يكون هذا الرجل كذابا. ويقول عداس: إن مثله لا يمكن أن يتحمل ما لقى إلا فى سبيل الحق، ولا أن يثبت على دينه بعد كل هذا إلا أن يكون دينه الحق.

كل هذا وغيره كثير وكثير مما تضمه كتب السيرة يبرء صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم. وهو ليس فى حاجة إلى من يبرأه ـ من أن يكون راغبا فى الدنيا وما فيها، أو طامعا فى سلطة أو جاه أو ساعيا إلى ملك وعرض وقد عرض، عليه كل ذلك فأبى

إلا أن يدعو للحق لأنه رسول موفد ممن خلق الأرض والسموات العلى، والذى له ما فيهما وما بينهما وما تحت الثرى.

ويضيق الناس برسالة محمد عليه الصلاة والسلام فيظنونه ساحرا تارة ويظنونه مدع تارة أخرى ويطلبون منه ما يطلبون حتى يتهمونه بالعجز والكذب ويحدثنا القرآن الكريم عن ذلك فيقول:

وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

(الإسراء ٩٠ ـ ٩٣)

وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾

(الفرقان ٧ ـ ٨)

هكذا كانت أحاديثهم وهكذا كانت طلباتهم كلها طلبات مادية دنيوية لا أثر للروح فيها والرسالة سماوية علوية ويرد عليهم سبحانه وتعالى:

قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾

(الإسراء ٩٥)

ويقول سبحانه وتعالى لنبيه:

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ

(الشورى ٤٨)

ويقول سبحانه وتعالى:

فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ (الغاشية ٢١ ـ ٢٢)

وغير ذلك كثير حتى يطمأن رسول الله فى دعوته لا يحزن ولا ييأس والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ويقول القرآن الكريم :

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ (القصص ٥٦)

وتسير الدعوة الحقة فى طريقها وينتشر الإسلام ويدخل النبى مكة منتصرا ويطوف بالبيت الكريم وتجتمع به قريش لتنظر ماذا هو فاعل بهم بعد أن قاس منهم ما قاساه فيقول لهم رسول الله: يا معشر قريش ما تزون أنى فاعل بكم. فيقولون: خيرا أخ كريم وابن أخ كريم. فيقول الرسول صلوات الله عليه وهو يبكى متأثرا: (إذهبوا فأنتم الطلقاء). أقول لكم ما قاله أخى يوسف لإخوته لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين).

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ

(سورة البقرة)

(٦)

الإسلام وطبيعة الإنسان

لقد جاءت رسالة الإسلام مطابقة للطبيعة البشرية فى صورتها الحقيقية، لا لبس فيها ولا غموض. فلا هى تدعو الإنسان أن ينسى دنياه رغبة فى آخرته، ولا هى تدعوه ليزهد فى نعيم الدنيا ليحظى بجنة عالية قطوفها دانية، ولا هى تطلق نفسه ليعمل فى دنياه ما يحلو له وما يريد وما تسوله له نفسه ـ والنفس كما يقولون أمارة بالسوء ـ بل هى تدعوه كإنسان، وتنظر إليه كبشر يخطئ ويصيب، يحب ويكره، يحب المال ويجمعه، ويشح به ويكنزه ولا ينفقه، يحب البنين، ويحب الدنيا وزينتها وهو مع كل ذلك يرغب فى الآخرة ويتطلع إلى ما فيها من نعيم. استمعوا لرب الناس وهو يحدثنا عن الناس فيقول:

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ (آل عمران ١٤)

وإذا كان هذا هو رأى رب الناس فى الناس أيتركهم يعملون ما يريدون أم يدعوهم إلى الهداية والنور فى كتاب كريم يقول عنه سبحانه وتعالى:

ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (البقرة ٢)

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ (آل عمران ١ ـ ٤)

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ (إبراهيم ١)

ويدعوهم هذا الكتاب الكريم إلى الهداية والصراط المستقيم، وتبدأ هذه الدعوة منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وجعله خليفته فى أرضه ليعمرها، ويستخرج كنوزها ويدير شئونها، فيزرع أرضها ويجنى ثمار ما يزرع ويبحث فيما هو كائن على سطحها وفيما هو كائن ببطنها من خيرات وكنوز، ويدعو سبحانه وتعالى الملائكة زيادة فى تكريمه وتعظيمه وبعد أن علمه الأسماء كلها ليسجدوا له فسجدوا.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ (البقرة ٣٠)

ومن آدم عليه السلام جاء البشر جميعا، فكلهم أبناء آدم وهكذا يدعوهم سبحانه وتعالى ليعبدوا ربا واحدا وإلها واحدا هو الله الواحد الأحد. وما ذلك إلا ليكون البشر جميعا سواء لا فرق بين هذا وذاك، ولا فرق بين أبيض وأسود، ولا فرق بين شرقى أو غربى فكلهم من آدم الذى خلقه الله ليكون خليفته فى أرضه، وهكذا كانت دعوة القرآن الكريم دائما للإنسان «يا بنى آدم» تذكرة بهذا الأصل الواحد الذى لا خلاف فيه ويحذرهم ربهم فى نفس الوقت من الشيطان حتى لا يصيبهم ما أصاب آدم عليه السلام.

يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ (الأعراف ٢٧)

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٦﴾ (الأعراف ٣٥ ـ ٣٦)

وهكذا كانت دعوة الإسلام للبشر جميعا بنداء واحد يجمعهم كلهم، ولا يستثنى منهم أحدا. فما من إنسان إلا وهو ابن آدم، وآدم خليفته فى الأرض. ولا يقتصر خطابه سبحانه وتعالى على هذا فقط بل يخاطبهم مرة أخرى، ويدعوهم بإنسانيتهم التى يعتزون بها وتميز الإنسان عن سائر الحيوان، وما أجمل أن يكون الإنسان إنسانا. والإنسانية هى الصورة الحقة الجميلة للإنسان الذى خلقه الله فأحسن خلقته وسواه فأحسن صورته وعلى كل مخلوقاته ميزة وكرمه ثم السبيل يسره استمعوا إليه سبحانه وتعالى وهو يقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ﴾ (النساء ١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ (الحجرات ١٣)

وما دام أكرم الناس عند الله أتقاهم فهو يدعوهم جميعا سبحانه وتعالى إلى التقوى لتستقيم الأمور وتستقر العدالة والمحبة بين الناس وتنتظم العلاقات بين البشر جميعا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢﴾ (آل عمران ١٠٢)

وكأنما أمره هذا للذين آمنوا أن يتقوا الله حق تقاته فيه من الصعوبة ما يشق على

النفس البشرية وفيها ما فيها من ضعف وحب للشهوات فيقول فى آيات أخرى:

فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ (التغابن ١٦)

وهكذا يقول سبحانه وتعالى «ما استطعتم» وهو أعلم بالإنسان الذى خلقه وسواه وزين له الدنيا وسخر له ما فيها من خير ونعم وسبحانه وتعالى الذى يقول:

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا (البقرة ٢٨٦)

ثم يرشد الله الإنسان إلى ما يدعو به ربه وهل هناك أحسن من أن لا يحمله سبحانه وتعالى ما لا طاقة له به. فطاقة الإنسان محدودة وحواسه محدودة وما لا يطيق أكثر مما يطيق، وما يستطيع الصبر عليه أقل كثير مما يتعرض له فى الحياة، وعندئذ يخبره العليم القدير كيف يدعو فيقول:

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾ (البقرة ٢٨٦)

وهكذا تعم رحمة الله الإنسان فلا عنت ولا عسر ولا اغفال للدنيا ولا اهمال لما فطر الله عليه الإنسان وجبلت عليه روحه بل يسر وسماحة وإلا فمن يرحم الإنسان ان لم يرحمه الرحمن، ومن يغفر للإنسان إن لم يغفر له ربه الذى كتب على نفسه الرحمة والغفران، وخلق الدنيا كلها وسخرها لخدمته ولا يذهبن الظن بنا إن الإسلام يترك الإنسان فى دنياه يعيش فى نعيمها ويتمتع بما فيها من نعم وزينة دون قيد أو شرط ولكنه يدعوه ليعمل وجعل قيمة الإنسان بمقدار ما يحسن من عمل وأن الجزاء

من جنس العمل فمن عمل عملا صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها والعمل بقدر ما هو واجب فهو شرف ونعمة لا يحس بها إلا من حرم تلك النعمة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

(البقرة ٦٢)

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ (النحل ٩٧)

ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ (سبأ ١٣)

قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

(الأنعام ١٣٥)

رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ (آل عمران ١٩٤-١٩٥)

فهو سبحانه وتعالى فى هذه الآيات الكريمة يطلب الإيمان والعمل فالمؤمن بالله لابد وأن يعمل فالإيمان وحده لا يكفى، ومن يعمل لدنياه فقط لم يصل الى مرتبة الإيمان التى يريدها الإسلام. ومن ترك الدنيا وزينتها ونسى نصيبه منها ولم يعمل بقوله تعالى:

وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا (القصص ٧٧)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

(المؤمنون ٥١)

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾

(البقرة ١٧٢)

لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ (المائدة ٩٣)

* يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ
ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ
هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن
تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

(الأعراف ٣١ـ ٣٣)

ويقول صلوات الله عليه: «إن الله تعالى لا يقبل إلا طيبا، وأنه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين».

ويقال أن أناسا جاؤا إلى زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونهن عن عبادته وقد قال واحد منهم أنه لا يأكل اللحم أبدا. وقال آخر: أنه لا يتزوج النساء. وقال ثالث: أنه لا ينام على فراش، وهكذا كما كانوا يظنون رغبة فى الزهد وتقربا من الله، وزيادة فى العبادة ولما عرف النبى أمرهم خرج إليهم غاضبا وقال: «ما بال قوم

يقول أحدهم كذا وكذا وإنى لأخشاكم لله وأتقاكم ولكنى أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى» ويقول صلوات الله عليه أيضا: «إنما هلك من قبلكم بالتشدد شدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم فى الديار والصوامع فاعبدوا الله ولا تشركوا به واستقيموا يستقم بكم».

وهكذا يطلب الإسلام من المسلم أن لا ينسى نصيبه من الدنيا، وأن يكون بشرا سويا لا ملاكا سماويا يعيش على الأرض، ولا يسبح فى عالم الفضاء، يسعى لرزقه ويأكل من عمل يديه، ويجوع ويشبع، ويشقى ويسعد، يتزوج ويجمع المال، ويبنى القصور ويملك الأرض ولكن الله سبحانه وتعالى ينهاهم فى نفس الوقت عن الغنى الفاحش والترف الذى ينسى الإنسان نفسه فينسى ربه، ويظن أنه على كل شئ قادر كيف لا وخيرات الدنيا كلها ملئ يمينه إن شاء أعطى، وإن شاء منع. ويحدثنا سبحانه وتعالى عن قارون الذى كان من قوم موسى والذى أتاه الله من الكنوز ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبية أولى القوة إذ قال له قومه:

﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧﴾ (القصص ٧٦_٧٧)

ولكن قارون تأخذه العزة بالإثم وينسيه غناه ربه فيقول: (أنما أوتيته على علم عندى) وينسى أن الله قد أهلك من قبله من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا. ويخرج قارون على قومه فى زينته فيقول الذين يريدون الحياة الدنيا (يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) ولكن الذين أتوا العلم يقولون: (ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون). وهنا يأتى عذاب الله وتأديبه لمن طغى وتكبر وأنساه الشيطان ذكر ربه فيخسف الله به وبداره الأرض ويصبح عبرة لمن كانوا يتمنون مكانه بالأمس فيقولون:

﴿وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ (القصص ٨٢)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (القصص ٨٣)

ويقص علينا سبحانه وتعالى قصة صاحب الجنتين الذى قال لصاحبه وهو يحاوره:

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ (الكهف ٣٤-٣٦)

فيقول له صاحبه وهو يحاوره:

﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾﴾ (الكهف ٣٧-٤١)

وهكذا كان عاقبته أن:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ (الكهف ٤٢-٤٣)

وكأنما المال دائما إذا وضع فى غير موضعه أو إذا نظر إليه صاحبه نظرة غير تلك التى يجب أن ينظر إليه بها فلا هو شاكر لربه على ما أعطاه ظنا أنه إنما أوتى ذلك المال من عمل يديه هو لا من فضل الله، وهكذا يكفر برسل الله ويجاهر بكفره وعصيانه معتزا بماله الذى لا دوام له ولا استقرار استمعوا إليه سبحانه وتعالى وهو يتحدث عن هؤلاء المترفين:

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ (سبأ ٣٤ـ٣٥)

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾ (الأنبياء ١١ـ١٥)

وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

(الزخرف ٣١ـ٣٢)

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾

(المؤمنون ٦٤ـ٦٦)

وليس معنى هذا أن الله ينهى عن الكسب الحلال فهو حق للإنسان ومن غير المعقول أن لا يحرم الله الزينة التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ثم لا يدعوهم إلى العمل والكسب. استمعوا إليه سبحانه وتعالى:

فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ (الجمعة ١٠)

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ (الملك ١٥)

ويريد الله بالرزق الحلال الكسب الحلال فلا ربا ولا استغلال لمعدم محتاج وإلا فيأذنوا بحرب من الله ورسوله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ

(البقرة ٢٧٧_٢٨٠)

حتى إذا جمع الإنسان مالا ورزقا حلالا قال له:

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ (الإسراء ٢٦_٢٩)

* لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

(البقرة ١٧٧)

وهكذا يضع الله لصاحب المال حدودا فعليه أن يعطى ذوى القربى حقهم والمسكين وابن السبيل ويطلب منه فى نفس الوقت أن لا يبذر تبذيرا ثم يقول له لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا. وهكذا يضع القرآن الكريم الأسس المتينة للقواعد الإجتماعية والاقتصادية فللقريب الفقير حق وللمسكين حق ولابن السبيل حق، ولصاحب المال نفسه حق ولكن عليه ألا يبذر ولا يجعل يده مغلولة إلى عنقه، ولا يبسطها كل البسط بل عليه أن يبتغى بين ذلك سبيلا، حتى لا يقعد ملوما محسورا. ولا يسمح الإسلام أبدا لمن أوتى المال أن يكون ماله هذا عونا على الظلم وأداة يستعملها للبطش والبغى ولكنه يقول:

وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ (البقرة ١٨٨)

وإذا كان الإسلام يدعونا إلى البذل والعطاء فهو ينهانا عن الشح الذى يمنع ذوى المال من التراحم والبذل والعطاء ومساعدة الضيف ومد يد المعونة للمحتاج:

وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ (الحشر ٩)

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ.

(آل عمران ١٨٠)

ويقول عليه الصلاة والسلام: «إياكم والشح فإنما هلك به من كان قبلكم. أمرهم بالقطيعة فقطعوا. وأمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالفجور ففجروا».

ويقول صلوات الله عليه في حديث آخر: «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم».

ويعتبر القرآن الكريم إطعام الفقير والمسكين والعطف على اليتيم والتواصى بالصبر والمرحمة عقبة وما أعظمها عقبة حتى إذا استطاع الإنسان أن يتخطى تلك العقبة كان من أصحاب الميمنة.

فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ (البلد ١١-١٨)

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾ (الماعون ١-٧)

ويدعو الإسلام ذوى المال للبذل في العطاء لتدعيم قوة المسلمين حتى يستطيعوا أن يردوا كيد المعتدين.

وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (الأنفال ٦٠)

أما الأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وآثروا الشح عى البذل والعطاء فيقول عنهم سبحانه وتعالى:

وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾

(التوبة ٣٤)

كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ
ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾
وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ
لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا
يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾

(الفجر ١٧-٢٦)

ثم فلنستمع إلى هؤلاء الذين لم ينفقوا أموالهم فى سبيل الله عندما يسألون:

مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾

(المدثر ٤٢-٤٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا

(سورة الأعراف)

(٧)

الإسلام والمرأة

محمد صلى الله عليه وسلم كان عظيما فى صدقه حتى سمى بالصادق الأمين، وكان عظيما فى خلقه، حتى كان أشرف الخلق كلهم أجمعين. وحتى قال القرآن الكريم فيه:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ (القلم ٤)

ولهذا كانت دعوته كما يقول عليه الصلاة والسلام (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). وعندما يسأله أبو هريرة رضى الله عنه وما حسن الخلق يا رسول الله فيقول صلوات الله عليه: (تصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك وتعطى من حرمك).

وهكذا كانت دعوة الإسلام دعوة إلى الحق وإلى الخلق الحسن وإلى الحب بين الناس والألفة والود، دعوة لا إجبار فيها ولا قهر ولا عنف، ويقول سبحانه وتعالى:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ (الغاشية ٢١-٢٢).

ويقول جلت قدرته أيضا:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ﴾

(الشورى ٤٨)

وهكذا كانت الدعوة الإسلامية دعوة تخاطب القلوب وتخاطب الوجدان فتنفذ إلى

أعماق النفوس فتحيى فيها خير ما أودع الله فى النفس البشرية من محبة وخير وصفاء. دعوة أعطت كل ذى حق حقه فقد أعطى للرجل حقه وللمرأة حقها وللصغير حقه وللوطن حقه وللنفس البشرية حقها. وإذا كانت حقوق الرجل مكفولة إلا أن حقوق المرأة كانت مسلوبة منذ القدم لا تتمتع بما يتمتع به الرجل، فهى التى لاقت من الظلم فى الجاهلية ما لاقت وتحملت من أذى الأهل ما تحملت، وهل أظلم من أن يئد الأب ابنته دون سبب أو جرم جنته، لكنه الخوف من العار كما كانوا يتحدثون ويقولون وهم المسئولون عن انحرافها وإعوجاجها إذا انحرفت عن الصواب أو إعوج سيرها إن كانوا يفقهون. وهكذا عن النور عميت الأبصار وعن الخير أغلقت القلوب وعلى الشر طبعت وعودت النفوس ويحدثهم ويحذرهم القرآن الكريم عن يوم القيامة، وما هم فاعلون فيه:

وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ (التكوير ٨ ـ٩).

كما يصف حالهم سبحانه وتعالى فيقول:

وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

(النحل ٥٨ـ٥٩)

وهكذا كان حال المرأة قبل الإسلام تقابل قبل أن يراها نور الدنيا وتراه مقابلة لا يرضاها إنسان لإنسان فتسود الوجوه ويتوارى أبوها عن الناس من سوء ما بشر به. حتى إذا كبرت وهو على بقاءها على قيد الحياة غير راض أو مطمئن، ولكن لا يلبث أن يزين له الشيطان وأدها حتى يتخلص مما قد تسببه له من خزى أو عار. وإذا كان هذا هو حال المرأة فى الجاهلية فإن حالها كان ولا يزال فى بعض الأمم المتحضرة سلعة تباع وتشترى كأى سلعة من السلع، ليس لها حق فى الميراث، منقوصة الأهلية ليس لها حق فى ممارسة شئونها المالية والقانونية اللهم إلا بعد أن يأذن لها وليها الشرعى ويرضى.

فهى ليست حرة فى أن تبيع وتشترى، وهى ليست حرة فى أن تتصرف فى مالها وعقارها.

والمرأة نصف الأمة كما يقال عليها تبعات جسام فبصلاحها يصلح النشء فهى الحاملة وهى المرضعة وهى المربية وهى الساهرة بالليل وهى المضحية براحتها وسعادتها فى سبيل سعادة الابن وسعادة البنت وسعادة الزوج بل وسعادة البيت كله والعائلة كلها إذا أردنا أن نضع الأمور فى نصابها. فإذا كانت هذه رسالتها وهذه هى أهميتها فلا أقل من أن تجد نفسها فى المكانة التى ترضاها ونرضاه نحن لها.

ويأتى الإسلام بهديه ورحمته ويبعث الله محمد عليه الصلاة والسلام ويقول القرآن الكريم فى شأنه:

وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ (الأنبياء ١٠٧)

وكما يقول أيضا لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ (التوبة ١٢٨)

ويسوى الإسلام بين الرجل والمرأة بغير تفرقة بينهما أو تمييز فى التكليف والجزاء. فمن عمل صالحا من ذكر أو أنثى كان له الجزاء الأوفى وليجزيهم ربهم بأحسن ما كانوا يعملون. استمعوا لقوله تعالى:

مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

(النحل ٩٧)

ولم يفرق القرآن الكريم بين الرجل والمرأة المخطئة فكلاهما فى نظر القرآن الكريم آثم يستحق العقاب، وهذا عدل لا ريب فيه والمخطئ لابد وأن يلقى جزاءه، ذكرا كان أم أنثى وهكذا يقول الذكر الحكيم:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾

(النور ٢)

ثم يزيد القرآن الكريم على ذلك فيحيط المؤمنات بتشريع يحميهن من أن يرميهن رام فيبقى عليهن طاهرات صالحات:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ (النور ٤)

فكأنما يريد الله جلت قدرته إن لا تثبت تلك الجريمة على المؤمنة وإلا فليأت من يدعى بأربعة شهداء يشهدون على أنها قد أخطئت، وتلك رحمة من الله تختص بها الشريعة الإسلامية دون باقى الشرائع. أما الذى يرمى زوجته فيحدثنا القرآن الكريم عنه فيقول:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾

(النور ٦-٧)

ثم يقول القرآن الكريم:

﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾﴾ (النور ٨-٩)

ولقد كانت المرأة فى بعض الأمم الحديثة كما كانت من قبل تحرم غالبا من الميراث، إذ أن الميراث حق للرجل دون الأنثى، ومن الأمم المتحضرة فى عصرنا هذا ما تقصر الميراث غالبا على الإبن الأكبر وحده دون الأبناء ولكن الإسلام يأتى ويسجل

للمرأة حقها فى الميراث، كما يرث الرجل لأنه ما كان الله ليخلقها ثم يظلمها أو يهملها أو ليحرمها من خير والديها مهما كانت قيمته ومهما قل هذا المال أو كثر.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ (النساء ٧)

ورب قائل يقول ولكن نصيب الأنثى نصف نصيب الذكر، وهذا حق لا جدال فيه لأن الله الذى شرع هذا التشريع جعل نفقة المرأة كلها على الرجل مهما كان ثراؤها ومهما كانت أموالها وأملاكا وبهذا جعل الله القوامة للرجال على النساء حتى تستقيم الأمور.

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ
(النساء ٢٤)

وأن الإنسان الذى يستمع لقوله تعالى:

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ (الأحزاب ٣٥)

ليحسى بمقدار ما فى هذا التعبير الدقيق من المساواة بين المرأة والرجل فهى مطلوب منها أن تقوم بما يقوم به، عليها أن تسلم وتؤمن وتقنت وتصبر وتخشع وتتصدق وتصوم وتحفظ نفسها وتذكر الله كثيرا كما يطلب من الرجل تماما، عندئذ كان لها كما له مغفرة من الله وأجرا عظيما.

ثم يزيد القرآن الكريم على ذلك كثيرا فيؤكد إنها مثل الرجل بل هى جـزء منـه لا تختلف عنه فهى منه وهى له، ولا يقول القرآن ذلك فى آية واحدة بل يعيدها ويؤكدها فى آيات كثيرة، وفى أكثر من موضع مبينا أن المرأة من الرجل خلقها منه وخلق منهما رجالا ونساء.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

(النساء ١)

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا

(الأعراف ١٨٩)

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

(النحل ٧٢)

ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى:

خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ (الزمر ٦)

فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ (الشورى ١١)

وهكذا يتحدث القرآن الكريم عن المرأة وأنها من جنس الرجل ليست غريبة عنه

فهى ليست من جنس آخر غير جنسه فهى قد خلقت لتكون له ومعه، ولم يقل القرآن الكريم مثلكم بل قال سبحانه وتعالى من جنسكم، ومن أنفسكم بل ويقول أيضا أنه خلقنا من نفس واحدة ثم خلق منها زوجها، وفى هذا تأكيد على الأصل الواحد والوحدة الكاملة فى الجنس بين الرجل والمرأة والجنس الواحد والأصل الواحد لا يكونان أبدا مدعاة للتنافر بل هما على العكس دعامتان يقوم عليهما الحب وترتكز عليهما الألفة وتؤديان إلى الرحمة والود.

ثم يتحدث القرآن الكريم عن مكانة المرأة ودورها فى حياة الرجل فيقول سبحانه وتعالى:

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾

(الروم ٢١-٢٢)

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا

(الأعراف ١٨٩)

وهكذا ينتقل القرآن الكريم من أن المرأة خلقت من الرجل فهى من جنسه لا من جنس آخر. وهكذا تكون المساواة بلا قيد أو شرط، ولكنه يبين فى أكثر من آية كما استمعنا العلاقة بين الرجل والمرأة تلك العلاقة التى اختار فيها المفكرون جميعا (لتسكنوا إليها) وهذا تعبير آخر جميل ودقيق بقدر ما هو عظيم ومعجز فلم يقل سبحانه وتعالى لتخدمكم، ولم يقل لتنجب لكم ما تشاؤون من البنين والبنات، ولم يقل لترفه عنكم ولكنه يقول قولا يجمع كل ذلك وغير ذلك فيقول وقوله الحق (لتسكنوا إليها) والسكن هنا الهدوء والإطمئنان والراحة فإن الإنسان إذا أزعجه شئ أو

خاف من شئ بحث عن مكان يسكن فيه، ويحتمى به، وهكذا يقول القرآن الكريم لتسكنوا إليها فهى الركن الذى خصه الله بالحنان وخصه بالهدوء جعل فيه الإطمئنان وزاده الله من فضله بأن جعل فيه المودة والرحمة. يا سبحان الله سكون وهدوء ورحمة وهكذا يضع الله سبحانه وتعالى المرأة فى أحسن صورة يمكن أن توضع فيها فهى السكن، وهى الهدوء، وهى المودة، وهى الرحمة، وهكذا يصفها من خلقها بأشرف الصفات ويضعها فى أعلى مكان.

وعلاقة المساكنة بين الزوج وزوجه هى الأساس المتين لبناء الأسرة المتينة لينشأ جيل جديد سليم يعتز به الأبوان ويعتز به الوطن ويعتز به الدين. والمساكنة هنا تنبعث من غريزة طبيعية يصفها وينظمها من خلق وأبدع هذا الكون فيرتفع بالإنسان الذى خلقه وكرمه الى مكانة عليا أرادها له وهيأوه لها حتى لا يكون مثل الحيوان الأعجم الذى لا تتعدى علاقته بأنثاه المحافظة على النوع فقط.

حتى إذا قيل كل هذا عن المرأة لا يقف القرآن الكريم عند هذا الحد بل يوصى بها الرجال خيرا فيقول:

وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ (النساء ١٩)

ويقول فى تعظيم حقهن:

وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ (النساء ٢١)

وهنا يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى لا ينطق عن الهوى كيف يعامل المرء زوجه فيقول (خيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائى).

ومما يؤثر عنه صلوات الله عليه أنه كان يسابق السيدة عائشة رضى الله عنهما فى العدو فتسبقه يوما، ويسبقها فى بعض الأيام فيقول صلوات الله عليه هذه بتلك.

ومما تحكيه السيدة عائشة أيضا عن رسول الله أنها سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون فى يوم عاشوراء فيسألها رسول الله (أتحبين أن ترى لعبهم) فتقول نعم فيرسل إليهم رسول الله فيجيئون ويقف صلوات الله عليه بين البابين وهكذا تقول

السيدة عائشة ثم يضع كفه على الباب ومد يده فوضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وانظر وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول حسبك وأقول أسكت مرتين أو ثلاثة ثم قال يا عائشة حسبك فقلت نعم فأشار إليهم فانصرفوا. ويقول رسول الله (أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله). وهذا توجيه كريم وسنة جميلة ودعوة إلى المعاملة الطيبة بين الزوج وزوجته، ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل استمعوا لما يحكى عن رسول الله إنه كان بينه وبين السيدة عائشة رضى الله عنها كلام مما استدعى أن يدخل بينهما أبا بكر رضى الله عنه حكما، ويقول صلوات الله عليه (تكلمين أو أتكلم) فتقول السيدة عائشة (بل تكلم ولا تقل إلا حقا) فيلطمها أبوها حتى دمى فوها قائلا يا عدية نفسها أو يقول غير الحق. عندئذ تستجير عائشة برسول الله وتقف خلف ظهره فيقول النبى الكريم لم ندعك لهذا، وما أردنا منك هذا. هذا مثل من الحب والود والرحمة والمعاملة الطيبة التى يجب أن تكون بين الزوج وزوجته لا عداوة ولا عدوان، ولا ظلم ولا إنتقام، هكذا يعلمنا رسول الله وهكذا يضرب لنا الأمثال فى حياته الخاصة ومعاملاته الخاصة.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

(الأحزاب ٢١)

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾

(الحشر ٧)

وما ذلك إلا لأن الله سبحانه وتعالى أعده لهذه الرسالة فهو لا ينطق عن الهوى ولا ينحرف عن الصراط المستقيم ويقول سبحانه وتعالى:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ (النجم ١-٤)

ثم تأتى الشريعة الإسلامية لتعطى المرأة حقها الذى لا ينازع فى مالها فهى حرة فيه ليس لزوجها أن يأخذ من مالها إلا ما قد تسمح به نفسها.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

(النساء ١٩)

وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾

(النساء ٤)

حتى إذا دب الخلاف بين الزوج وزوجه والخلاف بين الناس سنة من سنن الحياة فما أكثر ما نختلف وما أكثر ما يدب الخلاف والشقاق بين الأهل والأصحاب لأتفه الأسباب ولا يترك الإسلام هذا الأمر دون أن يضع له تشريعا وسياسة ونظاما استمعوا لقوله تعالى:

وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾

(النساء ٣٥)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا:

وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾

(النساء ١٢٨)

وهكذا حتى إذا عجز الحكمان عن الإصلاح واستحال التوفيق بينهما وكان الفراق ويقول القرآن الكريم:

ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ

مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ (البقرة ٢٢٩)

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ (البقرة ٢٣١)

وإمساك المرأة على كره منها لا علاج له بل هو ضرر لها وللزوج وهكذا يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ ﴾.

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ (النساء ١٩)

وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ (النساء ٢٠-٢١)

وهكذا تنظم الشريعة الإسلامية حقوق المرأة وتحميها مما قد يخطر ببال الرجل وتمنعه من أن يظلمها إذا كرهها بل عليه أن لا يأخذ مما آتاها وعليه إن أراد إما أن يعاشرها بالمعروف أو يسرحها بالمعروف.

وإذا كان بعض كتاب الغرب يعيبون على الإسلام الطلاق فما أكثر ما تسمع الآن بمحاولات لإباحة الطلاق وقد أباحته فعلا بعض البلدان لإعتقادها فى شرعيته

وضرورته فى كثير من الحالات حيث يكون هو الحل الوحيد الذى لا حل غيره للبقاء على سعادة الرجل وسعادة المرأة.

وليست المرأة فى كل الأحوال هى الواقعة تحت رحمة الرجل إن شاء أبقاها وإن شاء تركها، ولكنه، قد يجوز أن تكون العصمة بيدها إن اشترطت هى ذلك قبل الزواج فيكون زمامها بيدها، والحياة الزوجية أمانة فى عنقها إن شاءت أبقت عليها، وإن شاءت فالأمر متروك لها وهكذا يكون لها ما للرجل فى الإمساك أو التسريح.

وقد يعترض معترض أن الطلاق وهو أبغض الحلال عند الله مجحف بمصلحة الأولاد، ولو أن الإسلام قد بين حدوده فيما اشترط فيه من نفقة وحضانة ورضاعة ورعاية وما من عاقل يقول أن تربيته الأبناء بين أبوين غير متفاهمين ولا متحابين خير للأبناء بل هو شر لهم ولآبائهم.

والقرآن الكريم يبين ذلك فى محكم آياته فيقول:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ (البقرة ٢٣٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ

(سورة الأنفال)

(٨)

الإسلام والجهاد

إذا كان الإسلام يدعو إلى الكلمة الطيبة، وما لها من أثر جميل فى النفوس الطيبة فتطمئن إلى ذكر الرحمن فتخشع الجوارح، وتمتلئ بنور الإيمان الذى يضئ لها الطريق الحق، طريق الصواب، طريق الحياة الحلوة الكريمة ولكن بقدر ما يدعو القرآن الكريم إلى الكلمة الطيبة وإلى الصفح الجميل يدعو المؤمنين إلى الوحدة والقوة وإلى الإستعداد للقاء العدو والحرب والقتال فى سبيل الله والوطن. وهكذا كان المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وقد اتبع الإسلام طريقة حكيمة لإعداد المسلمين الى القوة والعزة فدعاهم أول ما دعاهم إلى وحدة واحدة تجمع كملتهم وتوحد صفوفهم وتؤلف بين قلوبهم. وبهذه الوحدة وحدها قويت شوكة المسلمين وأصبحت لهم مكانة وسطوة وكلمة مسموعة من الشرق إلى الغرب.

وأن لنا فى تاريخ الدعوة الإسلامية لعبرة. كيف تكونت وحدتها وما هو الطريق الذى سلكه صلوات الله عليه ليبنى ويدعم تلك الوحدة القوية.

ابتدأ النبى عليه الصلاة والسلام دعوته بدعوة صريحة واضحة لا لبس فيها ولا إيهام (يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا) تلك كانت دعوته عليه الصلاة والسلام ليلا ونهارا وفى كل لحظة، وفى كل مكان حتى كانت السنة الحادية عشرة من نبوته، وكان الإسراء والمعراج الذى كان الفاصل بين طائفتين، طائفة مؤمنة ثابتة، على إيمانها وطائفة مشركة تزعزع إيمانها وعادت إلى ما كانت عليه من شرك. ولكن قريشا لا

تستجيب لهذه الدعوة الصريحة الواضحة فتؤذى النبى وأصحابه وتشتد فى الإيذاء وتتغالى فى التعذيب والتكذيب ويتحمل المؤمنون ويصبرون.

وهكذا يتحمل صاحب العقيدة المؤمن بما يعتقد ويبقى على إيمانه من يؤمن بأنه لا إلا إلا الله. ولكن النبى شفقة منه ورحمة بمن اتبعوه يقول لهم: (تفرقوا فى الأرض) وعندما يسألونه إلى أين يتجهون. يشير إليهم بالهجرة إلى الحبشة قائلا (لو خرجتم إلى الحبشة فإن فيها ملكا عادلا لا يظلم حتى يجعل الله لكم مخرجا وفرجا مما أنتم فيه).

وهكذا هاجر بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعددهم اثنى عشر رجلا وأربع نساء منهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت النبى عليه الصلاة والسلام. والهجرة نفسها تؤلف بين القلوب، والسفر البعيد يولد الألفة، ويبذر بذور الحب وينميها فى القلوب، ويقوى روابط الأخوة بين الرفقاء فى السفر والهجرة.

والهجرة فى حد ذاتها تزيد من إيمان المؤمن، وتدعو إلى وحدة فى الصف ووحدة فى الرأى ووحدة فى الهدف ووحدة فى تحمل المتاعب والصعاب. وهذا كله كان مما لا شك فيه هدف من أهداف رسول الله وهو الذى لا ينطق عن الهوى ولا يتصرف إلا بوحى يوحى إليه ممن خلق الأرض والسموات العلى.

ثم يعود بعض هؤلاء المهاجرين ظانين بأن الأمور قد هدأت. ولكن قريش تشتد فى إيذائها وظلمها وغيها فيأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الخروج مرة أخرى إلى الحبشة، وكان عددهم فى هذه المرة ثلاثمائة وثمانين رجلا وثمانى عشر امرأة إزداد عدد المهاجرين أو قل إزداد عدد من أئتلفت قلوبهم وتوحدت صفوفهم فى رحلة تدعم وتزيد من وحدتهم والألفة بينهم.

وترسل قريش من يتبعهم إلى الحبشة ليعيدوهم فى ميلتهم إلا أن ملك الحبشة يرفض ما يطلبون فيعود وفد قريش بخيبة أمل يتحدث بها إلى أئمة الكفر فى مكة

وعندئذ تشتد قريش فى ثورتها ويتعاهدون فى كتاب يكتبونه بينهم على ألا يناكحوا بنى هاشم ولا يبايعوهم ولا يخاطبوهم. ويستمر هذا الحصار سنوات ثلاث لاقى المسلمون فيها ألوانا كثيرة من الجوع والعذاب والحرمان. وكانت هذه الفترة القاسية فترة صقل للمسلمين وفترة توحيد بين من بقى منهم فى مكة فإزدادوا إيمانا على إيمانهم وإزدادوا قوة وصلابة على قوتهم وصلابتهم. وإزدادوا إصرارا على الحق ودعوة الحق. والنبى عليه الصلاة والسلام لا يهدأ أبدا ولا يلين أبدا، ولا يكل أبدا يدعو دائما ويخطب دائما فى الناس، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

وإذا كان النبى قد لبث فى مكة ثلاثة عشر سنة التى سبقت الهجرة الى المدينة يدعو إلى الله وقد انضم وآمن بدعوته من آمن، ولم يبق من عناصر الخير فى مكة من يريد أن يؤمن أو يسلم. ولكن إذا كانت قريش تريد فإن الله يريد ما لا تريد وما يريده الله هو الذى لابد، وأن يكون والله متم نوره ولو كره المشركون.

فيأتى النبى نفر من الأنصار يعرض عليهم الإسلام، ويقرأ عليهم القرآن فيسلمون ويعدون بأن يلتقوا به فى العام القادم. وفى المدينة يدعون إلى الإسلام ويعودون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعددهم أثنا عشر رجلا يبايعونه على ألا يشركوا بالله شيئا، ولا يسرقون، ولا يزنون، ولا يقتلون أولادهم، ولا يأتون ببهتان يفترينه بين أيديهم وأرجلهم ولا يعصونه فى معروف. ثم يعود هؤلاء بعد عام آخر، وهم سبعون رجلا أو يزيدون ومعهم امرأتان، فتطيب نفس رسول الله بهم وقد وجد فيهم، وقد كثر عددهم منعة وقوة.

هذا وقريش مستمرة فى إيذائها وظلمها وغيها للمسلمين، وعندما يشتد عليهم البلاء يذهبون إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ليستأذنوه فى الهجرة فيقول لهم (لقد أخبرت بدار هجرتكم وهى يثرب) فمن أراد الخروج فليخرج إليها وعندئذ يبدأ المسلمون هجرتهم الى يثرب سرا. ولم تكن الهجرة ميلا للراحة أو السكون أو الرضا بما هو مكتوب مقسوم أو هروب من إيذاء وتعذيب ولكنها كانت مرحلة من أهم مراحل الكفاح والنضال.

وكان أبو بكر رضى الله عنه كلما أستأذن رسول الله فى الهجرة يجيبه الرسول:

(لا تعجل يا أبا بكر لعل الله أن يجعل لك صاحبا) فيسكت أبو بكر ويصبر طمعا وأملا فى أن يكون صاحبه فى الهجرة هو الرسول صلوات الله عليه.

ولكن قريشا حتى من الهجرة تخاف وترتعد وتقول أن محمدا لا شك لأحق بأصحابه وسيشتد أمرهم ثم يعودون إلى قريش فاتحين غازين. وتجتمع قريش وتدبر وتفكر وتمكر ويمكر الله، والله خير الماكرين. ويأتى أمر الله لرسوله بالهجرة فيطلب من ابن عمه على بن أبى طالب أن ينام فى فراشه قائلا له: (اتشح ببردتى فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه).

ويهاجر النبى ومعه أبو بكر ويحدثنا القرآن الكريم عن هذه الهجرة وهذه الصحبة فيقول:

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

(التوبة ٤٠)

وهنا نقف قليلا لنرى الألفة والوحدة التى كونها الإسلام بين القلوب فى أتم صورة وأوضح بيان: ينام على بن أبى طالب فى فراش النبى متشحا ببردته، وهو يعلم علم اليقين أن قريشا تتآمر ومصّرة على قتل النبى، ولكنه يفديه بنفسه وحياته ولو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى لا ينطق عن الهوى يقول له: (لن يخلص إليك أمر تكرهه).

ويهاجر النبى ومعه أبو بكر ويمكثان فى الغار ثلاثة أيام خشى فيها أبو بكر على

رسول الله، ولكن الرسول يطمأنه ويقول: (لاتحزن إن الله معنا). ألا فليقرأ كتب السيرة من يريد المزيد ففيها عن الهجرة ما تطمئن إليه كل نفس حائرة فترى النور الإلهى والقدرة العليا التى تحرك هذا الكون كله وتحفظه.

وفى المدينة تبدأ المرحلة الثانية فى الألفة والأخوة والوحدة الكاملة بين المسلمين فيؤاخى النبى بين المهاجرين والأنصار أخوة لا مثيل لها فى تاريخ الأمم أخوة فى المال أخوة فى الوطن والكفاح تجمعهم كلمة واحدة وتوجههم سياسة واحدة نحو هدف واحد ويحدثنا القرآن الكريم فيقول:

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ (الأنفال ٧٢)

أما عن الأنصار فيقول القرآن الكريم:

يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ (الحشر ٩)

وهكذا تمت الوحدة والألفة بين المسلمين جميعا، حتى إذا تمت هذه الوحدة والألفة بين هذه الجماعة المؤمنة كان قد تم إعداد المسلمين الإعداد القوى لمقابلة العدو القوى بوحدة قوية ونفوس مؤمنة متآخية متآلفة تقف أمام المعارضين للدعوة والفكر وقفة البنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ويدعم بعضه البعض.

وهكذا كانت دعوة الإسلام إلى الوحدة، دعوة إلى إله واحد وهجرات فى سبيل الله بما فيها من تجارب تصقلهم وأحداث تصهرهم فيزدادون مع الصبر إيمانا فيتآلفون ويتحابون وتقوى نفوسهم وتشتد عزيمتهم، ويدب فيهم حنين إلى وطن نشأوا فيه وأحبوه، وإلى أهل تركوهم، وما أحلى أن يعودوا إليه منتصرين فاتحين.

ولم تقتصر دعوة الإسلام إلى الوحدة على هذا فحسب بل كانت دعوته إلى

الوحدة تتمثل فى القبلة الواحدة التى يتجه إليها المسلمون جميعا من مشارق الأرض ومغاربها خمس مرات كل يوم والقبلة الواحدة دعوة إلى الوحدة الواحدة والوجهة الواحدة التى يتجه إليها المسلمون جميعا بقلوبهم يصلون ويسجدون، وترتفع أصواتهم بنداء واحد لرب واحد «الله أكبر الله أكبر» فتتجاوب أصداء العالم كله فى كل وقت مؤكدة هذا النداء إلى إله واحد ورب واحد بلغة واحدة فرضها القرآن الكريم على المسلمين جميعا، وذلك لتستكمل وحدة الدين بوحدة اللغة وإنى لأذكر، وقد كنت أمثل كليتى فى المؤتمر العلمى العربى الخامس الذى أقيم فى بغداد عام ١٩٦٦ واجتمع فيه علماء من الخليج الى المحيط كل له لغته ولهجته ولولا إن كان حديثنا ومحاضراتنا باللغة العربية لغة القرآن الكريم لصعب التفاهم بيننا، وإنى لأقول لمن يدعون الى اللغة العامية ـ وقد رأيت ولمست ما رأيت ولمست فى هذا المؤتمر أنهم بدعوتهم هذه يقضون على أساس من أهم أسس الوحدة العربية وهى اللغة. إذ لو التزم كل شعب بلغته العامية ولهجته لصعب التفاهم وصعب التقارب، وكنا إلى البعد والتفرقة أقرب.

وأن ننسى لا ننسى أساسا من أسس الوحدة التى أقامها الإسلام بين متبعيه، فهناك صلوات خمس تجمع المسلمين كل يوم، ثم هناك صلاة الجمعة تجمع أهل الحى كلهم فى مكان واحد، ثم هناك اجتماعين أكبر من هذا، وهما صلاة العيدين يجتمع فيهما المسلمون على مستوى البلد كلها فى مكان واسع فسيح. ثم هناك ما هو أكثر من هذا وهو اجتماع المسلمين من كل أقطار الأرض فى موسم الحج ليقوموا بفريضة واحدة ويؤدون مناسك واحدة فى زمن واحد، ومكان واحد وهكذا تتآلف القلوب وتتم الوحدة بين المسلمين جميعا.

وما أحوجنا فى هذه الأيام إلى أن نعيد أسس هذه الوحدة القوية التى رسخت فى قلوبنا منذ دعوة النبى عليه الصلاة والسلام فأصبحت تجرى فى عروقنا سريان الدم فيها وأصبحت جزءا من حياتنا، وقد تجلت فى ذلك الكفاح الذى تقوم به الأمة العربية

كلها كرجل واحد نحو هدف واحد. حتى إذا انطوى السملمون جميعا تحت هذا الهدف الواحد، وضمتهم هذه العقيدة الواحدة دعاهم الله إلى القتال إلى قتال المشركين حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله.

استمعوا لقوله تعالى:

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

(البقرة ٢١٦)

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾

(الأنفال ٣٩)

وعندما يحرض القرآن الكريم المسلمين على القتال والجهاد يدعوهم إلى النفقة فى سبيل الله والاستعداد بالعدة والعتاد استمعوا لقوله تعالى:

انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

(التوبة ٤١)

وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ

(الأنفال ٦٠)

ثم أنظر بعد ذلك إلى أثر هذا الإعداد الوحدوى وهذه التوجيهات الإلهية فى الغزوة الإسلامية الأولى، غزوة بدر، ويحدثنا التاريخ أن المشركين تحركوا وعدتهم ألف

محارب ومائة فرس وسبعمائة بعير. أما المسلمون فى ذلك الوقت فلم يتجاوز عددهم الأربعمائة محارب وثلاثة أفراس وسبعين بعيرا.

ولكن هناك فرق بين المشركين والمسلمين. فالمسلمون متسحلون بإيمان قوى لا حد له، ويتمتعون بوحدة قوية لا أنفصام لها، كونتها الهجرة ودعمتها الأخوة وربطتها الألفة بين المهاجرين والأنصار، ودعت إليها عقيدة واحدة وقبلة واحدة. وهكذا كان المسلمون يقاتلون فى سبيل الله والحق. يبذلون دمائهم رخيصة فى سبيل الله. استمعوا الى المقداد بن عمر وهو يقول: (يا رسول الله امض كما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون. بل إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. فو الذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (موضع بناحية اليمين) لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه).

ثم ينظر النبى عليه الصلاة والسلام إلى الأنصار ويقول: (اشيروا على أيها الناس) فيقول سعد بن معاذ: (والله لكأنك تريدنا يا رسول الله) فيقول عليه الصلاة والسلام (أجل) فيقول سعد (قد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض يا رسول الله لما أردت فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن نلقى عدونا وإنا صبر على الحرب صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقربه عينك فسر بنا على بركة الله) وحدة قوية وإيمان أقوى وعزيمة تخر أمامها الجبال فاستمعوا إلى عمر بن وهب وقد أرسلته قريش ليحرز لهم أصحاب رسول الله فيقول: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلونى قليلا حتى انظر للقوم كمين أو مدد ثم يرجع إلى قومه ليقول: ما وجدت شيئا ولكنى رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، تواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة، ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجل منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم. فما أشبه اليوم بالبارحة إيمان

بالحق فى العالم العربى كله، وتدافع إلى القتال والدفاع فى العالم العربى كله من الخليج إلى المحيط وحدة واحدة استطاع أن يخلقها هذا الكفاح، وإن تدعمها هذه المعركة التى لم نخسرها، كما يظن البعض لأن الحرب لازالت دائرة، ولم تنتهى ولن تنتهى إلا باندثار هذه العصابات الغادرة التى أوجدها الغرب وحماها الغرب واشترك معها فى المعركة بوجه حاول أن يخفيه ثم سدوا آذانهم من منطق الحق والمنطق العدل فلا المنطق فى صفهم ولا العدل فى جانبهم، ولا القانون الدولى يحميهم ولكنها الأطماع الاستعمارية وقد استبدت بنفوسهم ووضعت غشاوة على عيونهم فحجبت عنهم نور اليقين ونور الحق، ومنعتهم من أن يقولوا كلمة الصدق، وكلمة الحق، والله متم نوره ولو كره الظالمون. لأنه يدعونا إلى الوحدة وإلى الجهاد بالنفس والمال ألم يقل سبحانه وتعالى:

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ (التوبة ٤١)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا:

وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

(البقرة ١٩٠)

ونحن يا رب لم نعتد، ولكن كانوا هم المعتدون فالأرض أرضنـا ولكـن الظالمـون لا يعترفون والحق حقنا، ولكن الدول الإستعمارية تتجاهل ذلك الحق ونقف فى صف المعتدين والله فوق كل معتد أثيم. ونحن يارب إذ نستمر فى ذلك القتال فإنما نفعل ذلك عملا بقولك:

وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ

(البقرة ١٩١)

ونحن إذ نقاتلهم ونستعد لملاقاتهم سنهزمهم بعونك وفضلك متقدمين لا نولهم الأدبار أبدا حتى لا نكون عرضة لغضبك يا رب الذى وعدت من يوليهم دبره فى قرآنك الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ (الأنفال ١٥- ١٦).

ويدعونا القرآن الكريم إلى جمع الكلمة، وجمع الشمل والصبر، وما أحوجنا إليهما فى هذا الوقت العصيب حتى نستطيع أن نستجمع قوانا ونثأر لأنفسنا وإخواننا، وأن نعيد الى وطننا عزته ورفعته ويبين لنا القرآن الكريم ذلك فيقول:

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ (الأنفال ٤٦)

وإذا كان الكفاح مرير وإنه لمرير ولكن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

(آل عمران ١٣٩ ـ ١٤٠)

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾

(سورة الجاثية)

(٩)

الإسلام والكون

كان عليه الصلاة والسلام إذا سئل عن معجزة قال لسائليه «حسبكم الكون معجزة. انظروا إلى الأرض فهى من عجائب صنع الله. وآية على وجوده وعظمته. خلقها لكم وسلك لكم فيها سبلا. تمشون فى مناكبها وتأكلون من رزقه. ثم انظروا الى السحاب المسير فى الآفاق يسح بمائه فيحيى أرضا موتا، ويخرج منه زرعا ونخيلا وأعنابا. ثم انظروا إلى الأنعام خلقها لكم تجعل المرعى سائغا للشاربين. ثم انظروا فى أنفسكم فأنكم معجزة. لقد كنتم صغارا، ومن قبل لم تكونوا شيئا مذكورا. ثم وهب لكم الله العقل والقوة والجمال والرحمة أشرف الصفات. صدق رسول الله ففى الكون معجزة وأى معجزة أكبر من معجزة الكون. وكيف يرد رسول الله على أناس ضاقت عقولهم وعميت بصيرتهم حتى إذا رأوا آية قالوا سحر مستمر.

ويحدثهم رسول الله ويدعوهم إلى نظرة عميقة تريهم عظمة الكون وجماله وعظمة الخالق وقدرته، فيقول لهم انظروا إلى الكون ففيه معجزة، ولكن أنى يفقهون
وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ
فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ

حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (الإسراء ٩٠_٩٣).

هكذا كان حديث الناس يريدون معجزة تثبت وجود الله، وتثبيت صدق دعواه ويريد الرسول أن يريهم الدليل على ذلك ملموسا يلمسونه بأيديهم ويرونه بأعينهم فيقول لهم: «حسبكم الكون معجزة. انظروا الى الأرض فهى من عجائب صنع الله» كيف لا وتلك الأرض الكروية التى أبدع الله خلقها وأعطاها القدرة على الحركة الدائمة بتلك السرعة الهائلة كما أخبرنا سبحانه وتعالى فى قرآنه المعجز :

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ

(النمل ٨٨)

سبحانك ربى تخبرنا عن دوران الأرض فتضرب المثل بالجبال الراسيات تحسبها جامدة، وهى فى الحقيقة تمر مر السحاب. ومما لا شك فيه أن تتحرك الجبال وحدها والكرة الأرضية ثابتة ساكنة.

فتلك الأرض تدور حول نفسها وهكذا يكون يومنا ليلا ونهارا وفى ظلام الليل آية وفى وضوح النهار آية أخرى وسبحانه حين يقول:

إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾

(آل عمران ١٩٠)

وتدور الأرض دورة أخرى حول الشمس فى كل عام مرة وهكذا تكون فصولنا الأربعة من حر إلى برد إلى ربيع ثم إلى خريف. حتى إذا رفعنا رؤوسنا إلى السماء، وقد رفعت بغير عمد ذلك تقدير العزيز العليم. وإذا بنا نردد قوله سبحانه وتعالى:

قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا

قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾

(فصلت ٩-١٢)

ثم نقول للمشركين مرة أخرى ما يقوله سبحانه وتعالى:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

(النازعات ٢٧-٣٣)

سبحان الله ألا يدعو إلى التفكير فى الله ذلك الكون بعظمته واختلاف ليله ونهاره واختلاف حره وبرده. ألا يشعرنا بوجود الله ذلك القمر الذى يبدأ هلالا ثم يستدير ثم يعود كالعرجون القديم:

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

(يس ٣٩-٤٠)

لقد استطاع ابراهيم عليه السلام أن يعرف ربه وخالقه من نظرة إلى النجوم، ثم إلى القمر، ثم إلى الشمس، ثم انتقل من كل ذلك إلى الله الواحد الأحد خالق كل شئ الموجود أبدا، والذى لا يغيب أبدا وجوده دائم، ونوره دائم ويحدثنا القرآن الكريم عن ذلك فيقول:

* وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا

أَلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ

(الأنعام ٧٤ـ٧٩)

حتى إذا قدر لنا أن ننتهى من التأمل فى الأرض والسماء والشمس والقمر والنجوم كان علينا أن ننظر إلى ما على الأرض.من جبال ووديان وأنهار وحيوان وإنسان كل خلق فأبدعت خلقته عندئذ نقول ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ونردد قوله سبحانه وتعالى:

وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(الرعد ٣)

ثم فلنتدبر قوله سبحانه وتعالى:

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾

(فاطر ١٢)

ثم فلنقف قليلا أما البحار والأنهار وننظر إلى المحيطات والبحيرات الممتلئة بالماء الزاخرة بالحياة تؤثر فيها حرارة الشمس وحركة الهواء فيعملان معا على بخر المياه حتى إذا تجمع البخار فى الطبقات العليا من الجو حيث يتكاثف ذلك البخار، ويكون السحاب فتحمله الرياح الى حيث يشاء الله إلى حيث يسح ماؤه فيحيى أرضا مواتا

فتنبت الأشجار وتكثر الثمار، وتطيب الحياة، ويحدثنا سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز فيقول:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾

(الروم ٤٨-٤٩)

ويقول أيضا جلت قدرته:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾

(الأنعام ٩٩)

حتى إذا تركنا الماء ليخرج به نبات كل شئ فلنفكر لحظة فى الحب والنوى وما يخرج منها من أشجارا اختلفت ألوانها وأشكالها وثمارها، فنفضل بعضها على بعض فى الأكل إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون.

فلننظر إلى الحب وقد احتوت كل حبة على قصة حياة كاملة لنبات شكله وحجمه وثمره لا تحتاج هذه القصة إلا أن تجد الأرض الطيبة والمياه الصالحة فتظهر الى عالم الوجود.

وإذا كان الشائع فى النبات أن يختار غذاؤه من الماء والأملاح الذائبة فى التربة، ومن الهواء فإذا به يحول هذه المواد الأولية إلى سكر ونشاء نتغذى عليه، وتتغذى عليه سائر الحيوانات فإن من النبات من لا يرضى بهذه الطريقة فى الغذاء فيتغذى على الحيوان كما يتغذى الإنسان، ومن هذه الأمثلة نبات النيبنش الذى يوجد فى جزر الملايو، فورقة

هذا النبات على شكل جرة ذات غطاء، وتتجمع قطرات الماء داخل هذا الوعاء حتى إذا جاءت حشرة استهواها رحيق هذا النبات الحلو المذاق، ووصلت الجرة لترتشف من هذا الرحيق، فإذا بالنبات يحس بهذه الحشرة فيغلق فتحة الجرة بغطائها ثم تبدأ عملية الهضم بأنزيمات خاصة يفرزها هذا النبات لإذابة هذه الحشرة فتكون سهلة الإمتصاص الذى إذا انتهى فتحت الجرة ثانية لتستعد لإستقبال الفريسة الثانية وهكذا.

هناك نوع آخر من النبات يسمى بالدروزيرا لأوراقه عدد كبير من الزوائد الحساسة التى تفرز مادة لزجة فإذا سقطت حشرة ما على ورقة من هذه الأوراق التصقت بالمادة الرحيقية، وعبثا نحاول الفرار إذ تمتعها تلك الزوائد الحساسة التى تعمل كشباك حول الفريسة وتفرز عليها عصارتها الهاضمة، حتى إذا امتصت الحشرة اعتدلت الزوائد استعداداً للضيف الجديد.

كما أن هناك نبات آخر هو نبات الديوينا كل ورقة من أوراقه على شكل مصراعين وعلى سطح كل مصارع أشواك دقيقة. فإذا ما وقفت حشرة على الورقة انطبق المصراعان وانغرزت الأشواك الحادة فى جسم الفريسة فتمزقها وبهذا تسهل عملية الهضم ثم الإمتصاص.

ثم ينتقل بنا حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى الأنعام. كيف خلقها الله وصورها. نستقى منها لبنا سائغا للشاربين. أفلا ترى فى ذلك اللبن معجزة، وفى تكوينه من المرعى معجزة تدل على قدرته سبحانه وتعالى فجدير بنا أن نستبطن الأمر فلا ننظر تلك النظرة السطحية التى تخفى جمال الباطن وعمقه وعظمته.

وهناك فى مملكة الحيوان معجزات استمعوا الى قوله تعالى:

وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾

(النور ٤٥)

ومن منا لم ينظر إلى عالم الحيوان، وما فيه ولم يتأمل ما خلق الله وأبدع فى خلقه. فلينظر من لم ينظر إلى عالم النمل، وكيف يسعى ويجد ليختزن من حره لبرده وكيف يطير النحل بين الأزهار ليرتشف من رحيقها ما يقتات به وتقتات به صغاره. ثم فلينظر من لم ينظر إلى عالم الطير، وكيف تطير من غصن إلى غصن باحثة عن أكلها وغذائها فلعله يرى فى هذا وذاك دقة المخلوقات ودقة الصانع.

ولعله يرى فى جمال الخلق جمال الخالق، وفى عظمة الكائنات عظمة الخالق الواحد.

تعالوا ننظر إلى هذه الحيوانات كيف تعيش. وهل لها حس كما لنا حواس وهل لها قلوب تدب بالعاطفة والحب ما تدب قلوبنا. وهل تستطيع أن تفكر كما نفكر، وهل هناك تعاون بين أفرادها كما هو الحال بيننا، ويجيب القرآن الكريم عن ذلك فى وضوح تام واختصار حلو جميل فى قوله تعالى فى سورة الأنعام:

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ (الأنعام ٣٨)

فلو نظرنا إلى النحل، وكيف تسيطر الملكة على الخلية فهى القوية الحاكمة فهى التى تضع البيض وعلى باقى الرعية الخدمة التامة وحماية الملكة:

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

(النحل ٦٨-٦٩)

وإذا كان هذا هو الحال فى دنيا النحل ففى مملكة النمل ما هو أغرب وأعظم فهناك

الملكة يحيط بها أفراد الخلية من شغالة وجنود. تقوم الشغالة بالخدمة العامة وإحضار الغذاء وتربية الصغار، ولا عمل للذكور إلا تلقيح الملكة والدفاع عن المملكة.

ومن النمل أنواع كثيرة فمنها الرحال الذى ليس له مكان خاص فيرحل فى جماعات من مكان إلى مكان آخر، ومنها النمل الزارع الذى يبذر بذور الفطر ثم يرويها بما يجلب، لها من ماء فى فمه حتى إذا نبت الحب ونمى الزرع تتغذى عليه النمل كما تتغذى الماشية على البرسيم.

وأنه لمن المدهش حقا أن نرى فى مساكن النمل حشرات المن التى تعيش وإياها عيشة المعاشرة، ويحيون سويا حياة التكاثف والتساند فيمدها المن برحيقه وشمعه، كما تمدنا الأبقار باللبن وذلك أجرا لإيوائه وثمنا غاليا يدفعه لأمنه وسلامته.

وأن أبدع ما فى مملكة النمل تلك المساكن التى يبنيها تحت الأرض بها حجر خاصة، منها حجرة العرش حيث تسكن الملكة لتضع البيض، وحجر أخرى لتربية الصغار وحجر للتخزين ويوصل بين الحجرات ممرات جميلة منسقة، ويحرس الجنود باب المملكة كل فى عمله بنظام غريب بديع يدل على فهم وإدراك.

وما حديث تلك النملة الى أهلها وعشيرتها عندما مر سليمان عليه السلام بوادى النمل يخاف على أحد:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾

(النمل ١٨)

ولعل من أهم الغرائز الموجودة بين الحيوانات هى غريزة حب القتال وحسب الاستعمار مثلها فى الحياة، كمثل كثير من الدول التى نسمع عن غدرها وقسوتها

ولعل أقرب الأمثلة لهذا هو ما نشاهده فى نوع من أنواع النمل لا يستطيع أن يخدم نفسه، ولا يختزن قوته فى حره لبرده لذلك فهو يلجأ إلى الحرب ليتخذ من أسراه عبيدا يسهرون على خدمته وراحته. وكثيرا ما يهاجم أنواعا أخرى من النمل من تلك التى تعتمد على نفسها فتزرع وتختزن ما تأكل فتبدأ الحرب بين الجيش المهاجم وجنود المستعمرة. ولما كان أفراد الجيش المهاجم يمتازون بالجرأة والشجاعة والقدرة على القتال كان النصر حليفهم، وسرعان ما يتقهقر العدو ويستولى الجيش المهاجم على المستعمرة فينقل صغارها الى موطنه، والتى عندما تكبر تبدأ حياتها كما لو كانت فى مسكنها الأصلى، وبين أهلها وعشيرتها تخدم أسيادها بأمانه، وكما يقال أن هؤلاء السادة لا يصيبون أسرارهم أو خدمهم بسوء حتى أنهم قد يدخلون حـــربا شعـواء إذا ما اعتدى عدو على أحد الخدم.

ثم فانتقل إلى موضوع آخر يرينا الكثير من التشابه بين طباعنا وطباع الحيوانات إلا وهو كيف يختار الحيوان أليفته وشريكته فى الحياة، وكيف يتنافس أكثر من حيوانين من أجل أنثى واحدة.

فهناك فراش يقال له قرن الوعل تتجمع الذكور حول الأنثى كل يتقدم لخطبتها يطير حولها بأجنحته مظهرا هيامه وغرامه، ولكن الأنثى تختار من خطابها واحدا ترضاه ويجوز قبولها فيتراجع الباقون ويختفون.

وهناك نوع من الخنافس يتسلح الذكر بقرنين يستعملها للقتال نصرا للحب بين المحبين المتنافسين، وكثيرا ما يتقدم إلى الأنثى الواحدة أكثر من ذكر واحد يبدأ بينهما قتال وحشى يفوز بالأنثى من يصمد فى القتال وينتصر.

كما أن هناك نوع من الخنافس يعيش الزوجان فى مسكن واحد، وويل لمن يقتحم عليهما المسكن فيقاتله الذكر وتساعده الأنثى فى هذا القتال فهى تحرس مدخل العش وتدفع زوجها من الخلف تبث فيه الحمية، وتشجعه إلى القتال فى سبيل وحدة الأسرة واستقلال العائلة.

والآن ننتقل إلى الطيور وما حنو الطير على صغاره إلا أمرا معروفا لنا جميعا.

وإننا جميعا قد شاهدنا دقة بناء العش وحسن اختيار مكانه. وكيف يتعاون كل من الذكر والأنثى فى ذلك حتى إذا أكتمل بناء العش، ووضع البيض تناوب الذكر والأنثى الرقاد والحضانة كما تتناوبان الرعاية والحراسة.

ولعل من أغرب طباع الطير محاكمة بعضها البعض، فقد شوهد فى الغربان بأنه إذا اعتدى غراب على آخر كأن يسلبه غذائه صرخ الغراب المعتدى عليه بصوت ذا نغمة معروفة فسرعان ما تتجمع الغربان حول المجرم على هيئة محكمة وإذا بالمعتدى يجثو على الأرض باسطا جناحيه طالبا الرأفة والرحمة من هيئة المحكمة. ولكن المحكمة تحكم بالإدانة يتبعها العقاب مشمولا بالنفاذ.

وما العقاب إلا بالضرب بالمناقير حتى يموت المعتدى أو يشرف على الموت.

ولعل من طباع الطير الغريبة أيضا أنها تترك موطنها الأصلى، إذا ما ضاق بها الحال وصعبت المعيشة هناك كقلة الغذاء أو برودة الجو أو غير ذلك من الأسباب، فتهاجر إلى بلد ناء لا تعبأ بطول الطريق، وما يعترضها من بحار ومحيطات حتى تصل الى ما تصبو إليه من غذاء وجو يطيب لها الإقامة فيه، وليس الغريب أن ترحل هذه الطيور ولكن الغريب أنها تعود إلى موطنها الأصلى إذا ما شعرت ـ والله يعلم كيف تشعر بذلك ـ بأن الغذاء هناك أصبح موفورا والحياة أصبحت سهلة ميسورة فتذهب من حيث جاءت فتجد ما شعرت به حقيقة واقعة لا وهما وسرابا.

هذا قليل من كثير فلنتدبر قوله سبحانه وتعالى:

إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾
وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ (الجاثية ٤)

ثم أخيرا، وليس آخرا بعد أن ننتهى من التأمل فى مخلوقات الله صغيرها وكبيرها من نبات وحيوان وجماد، كان من الواجب علينا أن ننظر الى أنفسنا فنحن معجزة وأى معجزة أكبر من خلق الإنسان من تراب ثم من نطفة ويدعونا القرآن الكريم فى أول سورة أنزلت على سيد الخلق أجمعين فيقول:

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

(سورة العلق ١ـ٥)

ويحدثنا القرآن الكريم فى سورة أخرى:

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

(غافر ٦٦ـ٦٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

لَا الشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

(سورة يس)

(١٠)

الإسلام وحركة الأرض

إن المسلم الذى هداه الله إلى الإسلام إذا أراد أن يزداد إيمانه، وتتوثق بالله وخالقه صلته، لابد وأن يتعلم ما لم يعلم، وأن ينظر فى ملكوت السموات والأرض ليرى أكثر مما يراه ببصره وعينيه عندئذ تتضح له الرؤيا، ويرى النور فى كل شئ يراه فى نفسه، يراه فى كل حاسة من حواسه وفى كل عضو من أعضائه بل وفى كل خلية من خلايا جسمه. ولم لا والقرآن الكريم يرسم للمؤمن هذا الطريق فيدعوه الى التعلم ويحضه على المعرفة والبحث. ألم يقل سبحانه وتعالى:

وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾

وألم يقل أيضا

وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

ولم نذهب بعيدا ألم يكن أول ما أنزل على سيد البشر صلوات الله عليه:

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ (العلق ١ - ٥)

ويكرم الله العلم تكريما بتكريمه بالقلم وهل هناك أكثر تكريما من أن يقسم به سبحانه وتعالى وأنه لقسم لو تعلمون عظيم فيقول:

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾

يعد سبحانه وتعالى الإنسان الذى خلقه وكرمه بأنه سيكشف له عن آيات كثيرة وأسرار هامة فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه سبحانه وتعالى الحق فيقـــول:

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ (فصلت ٥٣)

وفى هذه الآية دعوة صريحة للبحث والتعلم. حتى إذا سلك الإنسان هذا السبيل رأى من آيات ربه الكبرى الكثير وعرف من أسرار كونه الكثير عندئذ يؤمن عن عقيدة واقتناع، هذا إذا أراد أن يرى الحقيقة دون أن يعرض عنها، ولا يكون كمن يقول عنهم القرآن الكريم:

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾

(يوسف ١٠٥)

وإذا كانت هذه كلها ترغيبات للإنسان فى العلم إلا أنها فى نفس الوقت دعوة للمسلم أن يتعلم، وأن يزداد علما فيسمو بعلمه ويقوى بعلمه ويسعد بعلمه وها هو حاضرنا الذى نعيش فيه يقول أن الغلبة للعلم والنصر للعلم والقوة فى العلم. إلا أن القرآن الكريم يضيف إلى ذلك أن العلم وحده هو الطريق الوحيد لمعرفة الله سبحانه وتعالى، وأن الذى يعلم هو أول من يعلم أن الله حق وهو أول من يؤمن بوحدانيته وقدسيته استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

(النساء ١٦٢)

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ

(آل عمران ١٨)

بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ (العنكبوت ٤٩)

وغير ذلك من الآيات كثير وكثير. ثم تعالوا نتحدث عن موضوع الساعة وعما يشغل بال الإنسان فى هذه الأيام ألا وهى رحلة الإنسان إلى القمر وهبوطه على سطحه وهل يساعد ذلك على تثبيت إيمان المؤمن أو هو على العكس يدعو إلى زعزعة إيمانه.

دار الإنسان بسفينة الفضاء حول الأرض، ثم سافر من الأرض إلى القمر، ودار حوله وما فى ذلك شك، ثم هبط على سطح القمر وخطا خطواته الأولى على سطحه وجمع عينات من أرضه وتربته. هكذا طالعتنا الأخبار وهكذا رأينا على شاشة التليفزيون ورأينا رأى العين كيف كانت مركبة الفضاء تهبط وكيف هبط منها الرائد على سطح القمر.

وأن ما يعنينا فى هذا المجال أن نقول لرواد الفضاء أن ما يرونـه ما هو إلا جـــزء لا يقدر ولا يذكر من ذلك الملكوت الأكبر. وأن المؤمن الحق يستطيع أن يقول أنه رأى الله حقاً، رآه فى تلك الأرض الراسخة السابحة فى ذلك الفضاء. رآه فى ذلك القمر وفى تلك النجوم التى تسير وتسبح فى ذلك الفضاء الذى لا نهاية له ولا بداية، تسير فى أفلاك مرسومة محدودة لا تحيد ولا تخرج عن مدارها، وفى مواعيد لا تتقدم عنها ولا تتأخر، رآه فى تلك السماء التى رفعت من غير عمد نراها، ولكن من لم يرى شيئا من ذلك فلن يراه إن إبراهيم عليه السلام وقد وهبه الله نعمة البصر والبصيرة.

عرف ربه وهو على سطح الأرض دون أن يسبح فى فضائه أو أن يرتفع عن أرضه. عرف ربه سبحانه وتعالى عندما نظر إلى الكواكب فأعرض عنها، ونظر الى القمر فلم

يجد فيه ما يرجو ونظر إلى الشمس فوجد أنها لا تسمو، ولا ترتفع إلى المستوى الذى ينبغى أن يكون عليه ربه وخالقه. استمعوا للقرآن الكريم وهو يصف ذلك وصفا جميلا:

وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾

(الأنعام ٧٥، ٧٩)

ويحدثنا القرآن الكريم مرة أخرى عن موسى عليه السلام عندما جاء لميقات ربه وقال رب أرنى انظر إليك، فاستمعوا لما يحدثنا به القرآن الكريم:

وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

(الأعراف ١٤٣)

ويظهر إعجاز القرآن الكريم عندما نتابع الأطوار التى مر بها العلم والعلماء عن دوران الأرض وحركة الكواكب من عهد بطليموس وأرسطو طاليس حتى وقتنا هذا. كان بطليموس وأرسطو طاليس يعتقدان بأن الأرض ثابتة لا تتحرك، واستمر رأيهما هذا سائدا حتى عام ١٤٥٠ ميلادية، عندما جاء جون مولر تلميذ (برباخ) أستاذ الفلك فى جامعة فيينا وقد كان أول عالم من العلماء يرتاب فى صحة النظرية البطليموسية.

ولكنه لم يستطع أن يجاهر برأيه هذا فيحطم نظرية كانت مستولية على الأذهان تماما فى ذلك الوقت ثم يجئ كوبرنيكوس، وكان كاهنا وقد استطاع أن يدرك الحركة النسبية للأجسام ضاربا بذلك براكب فى سفينة تسير بحذاء الشاطئ فإنه يرى الأرض متحركة والسفينة ثابتة. وكذلك الحال فى الأجرام السماوية، فإننا نراها متحركة ونحن كأننا على سطح ثابت. وبذلك استطاع الوصول إلى تلك النتيجة المعروفة وهى أن الأرض متحركة لا ثابتة. وقد استطاع كوبرنيكس أن يجاهر برأيه هذا بالرغم من أنه كان من رجال الكنيسة، وبالرغم من سطوة البابا بولس الثالث. ولكن حتى هذا الرأى يقول بأن النجوم ثابتة لا تتحرك يختلف تماما عما نعرفه الآن من أن الكل فى حركة دائمة ويحدثنا القرآن الكريم فيقول:

وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾

حتى إذا كان عام ١٥٧١ ميلادية يأتى كيلر ويثبت أن جميع السيارات تدور حول الشمس كل فى مدار خاص به.

ثم يجئ غاليليو (١٥٦٤ـ١٦٤٢) وبفضل اختراع المرقب استطاع أن يرى ما لا تراه العين المجردة فرأى النجوم الكثيرة ورأى فى القمر جبالا وظلالا. وكشف أربعة أجسام صغيرة تدور حول المشترى واستطاع أن يثبت أن للزهرة أوجها كأوجه القمر.

ويأتى نيوتن بعد ذلك (١٦٤٢ـ١٧٢٧) ويثبت أن السيارات وأقمارها تدور كلها حول الشمس مرتبطة بقانون الجاذبية.

ثم يجئ هرقل (١٧٣٨ـ١٨٢٢) ويثبت أن جميع النجوم التى كان يظن أنها ثوابت هى فى الحقيقة متحركة ولكنها بعيدة جدا حتى إننا لا نستطيع أن نحسب أفلاكها.

ويقول العلماء أن فى السماء أنظمة عديدة تشبه الشمس وسياراتها تتحرك لها وفقا

لنظام دقيق وعجيب. وما شمسنا وقمرنا إلا مجموعة من مجموعات كثيرة مماثلة يزخر بها هذا الكون.

وهكذا تحدث التاريخ عن حركة الأرض والنجوم، وأن هذه الحركة لم يثبتها العلم إلا ابتداء من عام ١٤٥٠ ميلادية بينما القرآن الكريم ـ وهنا يظهر إعجازه ـ يحدثنا عن ذلك قبل ذلك التاريخ بمئات السنين أخبارا لا تقبل الشك، وفى وقت كانت العقيدة المسيحية تقول أن الأرض ثابتة لا تتحرك، ولكن القرآن الكريم يقولها صريحة واضحة:

وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ (يس ٣٨ـ٤٠)

ويقول سبحانه وتعالى فى آية أخرى:

وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ

(النمل ٨٨)

ويقول سبحانه وتعالى:

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾

وهكذا يحدثنا القرآن الكريم منذ القدم حديثا لا يتطرق الشك اليه يثبته العلم ويراه الإنسان برحلاته فى الفضاء رأى العين ما يدعونا إلى أن نعرف ونؤمن أنه تنزيل من لدن حكيم عليم. ولا هو بقول كاهن ولا بعلمه بشر، ولكنه قرآن كريم ممن خلق الأرض والسموات العلى وما بينهما وما تحت الثرى.

ثم نعود مرة أخرى إلى من كان يظن أنه سيرى الله وهو يدور حول الأرض،

وكأنما قد وصل إلى نهاية الكون والذى من المحال أن يص الى نهايته حتى ذلك الذى هبط على سطح القمر فلا يذهبن به أو بنا الظن أنه يصل إلى نهاية الكون أو أنه قد نفذ من أقطار السموات والأرض والله سبحانه وتعالى يقول:

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ (الرحمن ٣٣)

ويقول بعض المفسرين أن هذا السلطان هو العلم، ولكن مظاهر الآية يقول أنكم لن تنفذوا يا معشر الإنس والجنس مهما تقدم بكم العلم، وهذا تحد مستمر وسيستمر ما دامت السموات والأرض. وفى سورة أخرى يحدثنا القرآن الكريم عن هذا الكون وأنه أوسع وأرحب مما نظن فدنيانا كلها بشمسها وقمرها وأرضها ونجومها جزء صغير من ذلك الملكوت العظيم، وأن الذى يستمع إلى مثل قوله سبحانه وتعالى فى سورة المعارج:

تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ (المعارج ٤)

وهكذا تتحدث الآية وسرعة الملائكة والروح لا تتقيد بالأرقام التى تعرفها ولا تستطيع أن تجاريها تلك السرعات العظيمة التى وصل العلم إليها. ولكنه سبحانه وتعالى يخاطب البشر على قدر عقولهم المحدودة القدرة فيقول:

فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾

ثم يدعونا الحديث عن القمر والنجوم إلى ما يحتمل أن يوجد بها من مخلوقات وهل هناك كائنات حية أم لا والقرآن الكريم صريح فى ذلك وواضح استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ (الشورى ٢٩)

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ (النحل ٤٩_٥٠)

وإننا للآن لم نستطيع أن نثبت وجود حياة على أى من الكواكب إلا أن ذلك ليس ببعيد فنحن لم نكتشف الكون كله، وما زلنا فى بداية الطريق والطريق طويل وشاق وطريق العلم لا نهاية له. وهكذا يسبق القرآن الكريم فيما يقول فيضع لنا القضايا العلمية المختلفة ويعطى فيها حكمه الذى لا يقبل الشك ثم يقول للإنسان:

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ (العنكبوت ٢٠)

ويقول أيضا:

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الحج:

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾

(الحج ٤٦_٤٧)

بسم الله الرحمن الرحيم

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ
فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾

(سورة يونس)

(١١)

الإسلام وبداية الحياة

المادة الحية أو البروتوبلازمة هى التى تبقى على الكائن الحى حيا ما بقيت هى على قيد الحياة. فهى المسئولة عن القيام، بل هى التى تقوم بكل أوجه النشاط الذى يميز الكائن الحى عما سواه من الكائنات غير الحية. وهذه المادة الحية هى أصل الحياة وأساسها فمنها تتكون الخلايا، ومن هذه الخلايا تتكون الأنسجة ومن الأنسجة، تتكون الأعضاء وتجتمع الأعضاء فى أحسن تقويم لتكون الكائن الحى، ولهذا كانت المادة الحية هى الهدف الرئيسى لأبحاث من يريد أن يعرف سر الحياة وأصل الوجود. فكثيرا ما حاول العلماء ولا زالوا يحاولون تكوينها داخل أنابيب الاختبار مدعين أن ذلك فى مقدورهم أو سيكون فى مقدورهم فى أى يوم من الأيام. ولم لا! ألم يعرفوا م تتكون البروتوبلازمة ويحددوا مكوناتها. إذا ما عليهم إلا أن يجمعوا بين ما تتكون منه من مواد وعندئذ تصبح البروتوبلازمة حاضرة بين أيديهم. وهكذا حاولوا وهكذا يقولون: أنهم نجحوا فى تكوين البروتوبلازمة. ولكن البروتوبلازمة كمادة كيميائية من الممكن أن يكون فى مقدور العلماء تكوينها. ولكن أن يهبوها عنصر الحياة فهذا ما لم يستطيعوه ولن يستطيعوه. لأن الحياة نفحة من نفحات الله سبحانه وتعالى وهبة منه استمعوا لقوله تعالى:

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ (ص ٧١-٧٢)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا:

قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ (يونس ٣٤)

أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ (الرعد ١٦)

وقد تختلف المادة الحية بإختلاف الكائنات والأعضاء التى توجد بها ولكن هناك صفات معينة مشتركة تجمعها كلها، فى مادة رمادية اللون تشبه الجيلاتين. وهى محلول مائى لخليط من المواد بيد أن الماء يكون الجزء الأكبر منها فهو يصل الى ٧٠ أو ٨٠٪ من محتوياتها إلا أنها ليست محلولا كأى محلول آخر. وذلك لأن كثيرا من المواد التى توجد فى هذه البروتوبلازمة لا تذوب عادة فى الماء وهى مواد بروتينية بالإضافة الى مواد أخرى شبيهة بالليبيدات.

ولعل من أهم خصائص هذه المادة الحية هى قدرتها على تكوين غشاء رقيق على سطحها. وهذا الغشاء معجز فى تكوينه، ومعجز فيما يقوم به من وظائف فهو غشاء انتقائى النفاذ يسمح بمرور الأملاح والجزيئات الكبيرة.

وتتغير البروتوبلازمة بإختلاف مكوناتها فتختلف فى تركيبها الطبيعى والكيميائى تبعا لاختلاف الكائن الحى. ثم. تختلف بإختلاف العضو، وما ذلك إلا لكى تستطيع أن تقوم بكل ما تتطلبه الحياة من نشاط وحركة وغذاء وإخراج وتنفس وتكاثر بشكل يدعو الى التفكير العميق الذى يؤدى إلى التسليم بقدرته سبحانه وتعالى والإيمان به وأنه سبحانه هو وحده الذى يقول للشئ كن فيكون.

ولعل أسهل السبل وأيسرها لمعرفة ما فى هذه المادة الحية من قدرات وإعجاز هو دراسة حيوان أولى كالأميبة مثلا التى تتكون من كتلة صغيرة من هذه المادة الحية فقط. فلا أعضاء ولا أجهزة ولكنها كتلة ضئيلة من البروتوبلازمة تقوم بكل ما يحتاج اليه الكائن الحى ببساطة دون تعقيد وأداء سليم دون تقصير وفى يسر دون عسر.

وهذا الحيوان البسيط من ناحية ألشكل فقط. والذى يتكون من خلية واحدة دقيقة الحجم ويعيش فى كثير من البرك وتجمعات المياه، ويتكون جسمه من كمية دقيقة من هذه المادة الحية لا تكاد ترى بالعين المجردة. ولكنها بالرغم من ذلك وحدة حية متكاملة معجزة لها كيانها ولها حياتها ولها دنياها.

فهى تمتاز بأنه ليس لها شكل خاص منتظم يتغير بإستمرار، وهى إن لم يكن لها شكل محدود إلا أنها واضحة المحيط مكتملة الشخصية. ويتكون الجزء الأكبر من البروتوبلازمة من سيتوبلازمة لها طبقة خارجية رائقة شفافة تسمى بالأكتوبلازمة وكتلة مركزية مليئة بحبيبات دقيقة تسمى بالأندوبلازمة التى توجد فى وسط كتلة كروية الشكل تسمى بالنواة. وتلعب هذه النواة دورا هاما فى حياة الأميبة حتى أنها لو نزعت منها فقد تبقى الأميبة حية لفترة من الزمن تكون فيها عاجزة عن القيام بكل مناشطها الحيوية.

وتنتقل الأميبة كما ينتقل أى حيوان من مكان الى مكان إلا أن وسيلتها فى الإنتقال عجيبة. إذ ينساب البروتوبلازم تجاه نقطة معينة مكونا بروزات تسمى بالأرجل الكاذبة ـ لأنها ليست أرجل بالمعنى الصحيح ـ ثم ينساب البروتوبلازم داخل هذه البروزات. والسيتوبلازم الذى ينساب داخل هذه الأرجل يكون بالطبع مسحوبا من مكان آخر وهكذا تتحرك الأميبة فى اتجاه هذا الانسياب. وعند النقطة التى تتكون فيها هذه الأرجل الكاذبة تتحول الأكتوبلازمة من الحالة الصلبة إلى الحالة السائلة.

ويظهر أن الأكتوبلازمة وخاصة عند الطرف الخلفى تتقلص وتدفع الأندوبلازمة

السائلة إلى الخارج. وعندما تصل الأندوبلازمة إلى السطح تتحول إلى الحالة الصلبة مكونة أكتوبلازمة جديدة. وتستمر هذه العملية بسهولة ويسر. وهنا يظهر إعجاز المادة الحية، كيف تتحول من الحالة الصلبة إلى الحالة السائلة ثم تعود إلى الحالة الصلبة مرة أخرى، وهكذا ويقال أن السر فى ذلك هو فى ترتيب جزئيات البروتين الكبيرة التى منها تتكون البروتوبلازمة. وهكذا يسير الحيوان باحثا عما يحتاج إليه من غذاء أو هاربا من أى مؤثر أو خطر تشعر الأميبة أن وجوده يؤثر على أمنها وسلامتها.

والأميبة كأى كائن حى يسعى تحتاج إلى الغذاء لتعيش، فإذا وجدته أو أحست بوجوده سالت البروتوبلازمة حول هذه المادة الغذائية مكونة بروزا يشبه الكأس الذى سرعان ما يحيط تماما بهذه الكتلة الغذائية مبتلعا إياها مع قطرة من الماء، وذلك بالتحام حافتى الكأس فتتكون بذلك فجوة طعام داخل الأندوبلازمة التى تقوم بإفراز الإنزيمات الهاضمة التى تصبها داخل هذه الفجوة. ثم يتم الهضم بعمليات تشبه فى أساسياتها عمليات الهضم فى الحيوانات العليا. حتى إذا تم الهضم وتم الإمتصاص كانت هناك مهمة لفظ المواد الغير قابلة للهضم، ويتم ذلك بسهولة أيضا فما على البروتوبلازمة إلا أن تسيل من حول هذه المواد تاركة لها فى الوسط المحيط بالحيوان. وهكذا يتم الهضم ويتم الإخراج بنفس المادة الحية دون أجهزة خاصة أو تعقيد فى التكوين أو التركيب. ولكنها المادة الحية، وما أودع فيها من قدرات خارقة توحى بأنها من صنع الله الذى يقول للشئ كن فيكون فسبحانه وتعالى القائل:

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٦﴾

وكما تحس الكائنات الحية تحس الأميبة أيضا وتشعر بالرغم من أنها لا تحتوى على مستقبلات أو تراكيب حسية، ولكنه الإحساس والإنفعال من أسرار الحياة وتتنفس الأميبة أيضا فتأخذ الأكسجين وتخرج ثانى أكسيد الكربون، ويتم هذا كله عبر السطح

الخارجي إلى الداخل ثم من الداخل إلى الخارج ويتم هذا التبادل الغازى بعملية انتشار بسيطة.

فعندما يستهلك الأكسجين الموجود بالبروتوبلازمة تقل درجة تركيزه فيها عنها في الوسط الخارجي، وبهذا يميل أكسجين أكثر إلى المرور إ+لى الداخل.

فمن الذى أوحى إلى الأميبة أن تنتقل، ومن الذى علمها أن تسعى لرزقها بنفسها ومن الذى جعلها تحس وتنفعل، ومن الذى أودعها قدرة التنفس، ومن الذى وهبها نعمة الحياة. إنه من غير شك الحى الذى لا يموت فاطر السموات والأرض.

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

(الحشر ٢٣-٢٤)

ثم هناك تنظيم آخر للمحتوى المائى للبروتوبلازمة وبهذا تتساوى الأميبة بأى كائن آخر تقوم كليتاه بهذا التنظيم. أما فى الأميبة فيختلف الأمر، ولما كانت الطبقة الخارجية تكون غشاء نصف نفاذ كما أن البروتوبلازمة تحتوى على مواد فعالة أزموزيا فإن الماء يدخل إلى البروتوبلازمة بإستمرار فإذا لم يطرد هذا الماء فإن الحيوان لابد وأن يتفجر ولكن الماء الزائد يتجمع فى ما يسمى بالفجوة المنقبضة يدفعه بطريقة ما من البروتوبلازمة إلى الفجوة ثم تنفجر هذه الفجوة فجأة فيطرد السائل إلى الخارج وسرعان ما تتكون فجوة أخرى وتنفجر، وهكذا يتخلص الحيوان من الماء الزائد بهذا الجهاز البسيط.

حتى إذا كانت الحياة سهلة ميسرة وتوفر الغذاء ازداد حجم الأميبة ازديادا إلى حد لا يمكن أن تتعداه لأن هذه الزيادة لا يمكن أن تستمر مدى الحياة.

عندئذ يبدأ الحيوان فى الانقسام ليصبح الحيوان حيوانين وهكذا تتكاثر الأميبة بالإنقسام فتنقسم النواة إلى نواتين، وتنفصل كل واحدة منها عن الأخرى ثم تنفصل السيتوبلازمة تدريجيا إلى جزئين متساويين تقريبا يحيط كل جزء بنواة وهكذا تتكون أميبتان صغيرتان تشقان طريقهما فى الحياة ثم تكبر كل واحدة منهما ثم تنقسم وهكذا ما دامت الحياة سهلة والظروف مناسبة. أما إذا قست الحياة وساءت الظروف وأصبحت حياة الأميبة مهددة بخطر الفناء نتيجة للجفاف مثلا عندئذ لا تقف الأميبة ساكنة مستسلمة للموت راضية بقدرها بل تتخذ شكلا كرويا مفرزة حول نفسها حوصلة متينة قوية غير منفذة للماء، ثم تنقسم النواة داخل هذه الحوصلة إلى عدد من الأنوية يتجمع حول كل منها جزء من السيتوبلازم، ويتكون بذلك عدد كبير من الأجسام الصغيرة التى يحيط بكل منها غلاف. وتبقى هذه الأجسام داخل الحوصلة حتى تتحسن الظروف، ويصفو الجو عندئذ تنفجر الحوصلة، وتخرج هذه الأجسام الصغيرة ليكون منها حيوانا مستقلا. وهكذا نجد فى هذه الكائنات الحية الصغيرة ما تعجز عن القيام به أقوى القوى البشرية ولو اجتمعت وتكاتفت استمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ (الحج ٧٣)

ومن الناس من يقول أن الحياة نشأت على الأرض بظهور مثل هذه الكائنات الدقيقة ومن الخلية الواحدة تجمعت الخلايا لتكون مجتمعا أرقى يتمثل فى حيوان أرقى، ثم يستمر الرقى الى ما هو أرقى وأعلى حتى تصل إلى خلق الإنسان. وتختلف النظريات ويختلف العلماء فما من نظرية واحدة تستطيع أن تفسر كيف خلقت الحياة، وكيف نشأت عندئذ لا يستطيع أى باحث منصف إلا أن يرجع إلى الحقيقة التى لا جدال

فيها، وأن يعترف اعترافا صريحا بأن هذا من صنع الله خلق كل شئ فيردد قوله تعالى:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢﴾ (الأنعام ١-٢)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝١٩ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٠﴾

(العنكبوت ١٩ - ٢٠)

حتى إذا عرف الإنسان هذا وعرف أن الذى خلقه هو الله، وأن نفسه بيده سبحانه وتعالى وعندئذ تزداد معرفته بنفسه، ومن يعرف نفسه يعرف الله، ومن يعرف الله يعش بنور الإيمان، وسبحانه وتعالى القائل:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾ (فصلت ٥٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

(سورة البقرة)

(١٢)
لا تأخذه سنة ولا نوم

حتى إذا سجى الليل وهدأ الكون، وخفتت الأصوات، وداعب الكرى الجفون، واستسلم كل منا لفراشه، وبات فى نوم عميق لا فرق بين هذا وذاك، ولا فرق بين إنسان وحيوان، فكل كائن حى ينام، بل لابد أن ينام لأن النوم من صفات المخلوقات فهو ضرورى للحياة، وأنها لتنعدم إذا استحال على الإنسان أو الحيوان ولازمته اليقظة أياماً، والنوم بإعتباره حدثا عاديا يحدث فى كل يوم على الأقل ولو مرة واحدة ليس من البساطة كحدوثه، ولا من السهولة كما نتصور وقد تبين ذلك عندما يسأل نفسه لم ننام، ومتى تنام.

كان النوم شاغلا لكثير من العلماء ولو أن حقيقته والباعث إليه لم يهتد العلم إليه برأى قاطع حتى الآن، وقد عملت كثير من التجارب على الإنسان والحيوان فاتضح منها أهمية النوم للحياة وأنه أسرع فى القضاء على الحياة من الجوع، ومن التجارب التى أجريت على الكلاب أمكن إثبات أنها تستطيع أن تعيش لمدة ثلاثة أسابيع بلا طعام، ولكن الأجل لا يمتد بها إلى أكثر من خمسة أيام إذا امتنعت عن النوم.

أما الإنسان فقد أجرى العالمين باتريك (Patrick) وجيلبرت (Gilbert) التجارب على ثلاثة شبان تطوعوا لهذه المهمة، ولقد استطاعوا أن يعيشوا بلا نوم لمدة تسعين ساعة هبطت فى أثنائها درجة الحرارة وضعفت الأعصاب والعضلات وإذا زادت كمية

النوم زيادة بسيطة تلاشت كل هذه العوارض. وللنوم كما يقولون سببان أولهما ضعف المؤثرات أو المنبهات الواصلة إلى المخ كأن نغمض أعيننا أو ندخل فى حجرة مظلمة هادئة.

وثانيهما التعب وهو يضعف استعداد الجهاز العصبى للإستجابة للمؤثرات الخارجية.

ويعزو البعض النوم إلى تغيرات فى كمية الدم الواصل الى المخ، وهذا يؤدى إلى التعب. وبالكشف على ذراع رجل نائم اتضح أن حجم الذراع يقل فى كل مرة يحدث له فيها اضطراب، ولو لم يكن هذا الإضطراب كافيا لايقاظه من نومه. وهذا يدل على نقص كمية الدم فى الجسم وزيادة كميته الذاهبة إلى المخ، ويذهب بعض العلماء أمثال هاول (Hwell) إلى أن النوم الذى يعقب أكلة ثقيلة هو نتيجة لذهاب الدم إلى الجسم ونقصان كميته فى المخ.

وتدعى بعض النظريات أن النوم نتيجة لتكوين مواد كيميائية أثناء الحياة اليومية لها تأثير منوم على المخ، وعلى هذا القياس قالوا أن الاستيقاظ من النوم هو نتيجة لتأثير مواد أخرى كميائية مضادة تحدث أثناء الراحة. وقد ذهبوا فى هذه النظريات إلى حد أن قالوا أن المواد المنومة حامضية والمواد المنبهة قاعدية، ولكن هذه النظرية لا تعتمد على أسس من التجارب العلمية.

والرأى السائد الآن هو أن النوم يحدث من تغيرات كيميائية فى الأنسجة تحدث من الحركة، ومن المجهود فى الحياة اليومية فإذا استمرت هذه التغيرات ومنع النوم بالقوة استحالت على الجسم الحياة. أما إذا ترك الإنسان وشأنه فإنها تؤدى الى النوم وبه تستعيد الأنسجة قوتها، وتعود إلى ما كانت عليه قبل الحركة وقبل التعب، وهكذا تستمر الحياة عمل بالنهار ونوم بالليل.

ولا تنعدم الحياة بالنوم انعداما كليا، فالقلب لا يزال يدق وينبض دافعا الدم إلى جميع أجزاء الجسم، والجهاز التنفسى مستمر بشهيقه وزفيره. والجهاز العصبى مستمر

فى عملية الإمتصاص والجهاز البولى مستمر فى العمل والإفراز، كل هذا والإنسان فى عالم آخر أقرب إلى الموت منه إلى الحياة.

ولا يقتصر النوم على تلك الساعات القصار، بل ربما يمتد إلى أيام وأشهر، ففى الصحراء عندما يشتد الحر، ويقل أو قل يندر الماء فتقسو الحياة، تنام كثير من الحشرات والقواقع نوما عميقا طيلة أشهر الصيف، حتى إذا جاء الشتاء وصفا الجو، وسهلت الحياة صحت القواقع والحشرات من نومها، وهبت من رقادها تواصل السعى وتسعى للرزق، وهكذا تكون هذه الحيوانات فى الصيف فى عداد الموتى اللهم من تنفس بطئ هو دليل الحياة بين جنبيها.

وهناك نوع من الأسماك الرئوية تعيش فى أنهار المنطقة الحارة فى أفريقيا وأمريكا وأستراليا، وهذه الأنهار معرضة للجفاف فى وقت انقطاع الأمطار، فإذا جف النهر تدفن السمكة نفسها فى طين القاع الذى تمزجه بمادة مخاطية تفرزها غدد فى الجلد، ومن هذا الخليط تتكون علبة من الطين المتين تعيش فيها السمكة هادئة ساكنة طيلة مدة الجفاف مهما طالت.

وفى هذا الوقت تكون قد تحول كيس الهواء فيها إلى عضو يشبه الرئة يمكنها من تنفس الهواء الجوى مباشرة (ولهذا سميت بالأسماك الرئوية) فإذا هطلت الأمطار وامتلأت الأنهار تهدمت تلك العلبة الطينية، ودبت الحياة فى السمكة من جديد.

ولقد أمكن نقل هذه العلب الطينية، وفى كل سمكتها من أواسط أفريقيا إلى أوروبا فى رحلة استغرقت ستة أسابيع عادت بعدها إلى السمكة الحياة بعد وضعها فى الماء.

ولا يقتصر النوم فى الحيوانات على شدة الحر، وصعوبة الحياة فى الصيف، بل فى المناطق الباردة حيث تقسو الحياة شتاء، ولكن تبقى الحياة طيلة أشهر الشتاء وتبقى الأسماك مدفونة فى الجليد حتى إذا كان الصيف وذاب صحت السمكة وسبحت وابتدأت الحياة.

وهاذان النومان أو كما يسميهما العلماء البيات الصيفى والبيات الشتوى هما عقدة العقد. وظاهرتان غريبتان لم تنجح كل الأبحاث التى أجريت عليها حتى الآن فى كشف سرهما أو معرفة كنههما.

وهذا النوع من النوم الطويل فى مملكة الحيوان يذكرنا بما هو أطول منه مدة بل وأعجز منه وأدهش فى قوله تعالى:

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

(البقرة ٢٥٩)

سبحانك ربى نام مائة عام حتى إذا قيل له كم لبثت: قال لبثت يوما أو بعض يوم وهكذا حتى فى نومنا القصير لا نعرف بالضبط مقداره، وعلينا أن نعتمد على ما تقوله الساعة وما يقوله من حولنا.

وأن قصة أهل الكهف والرقيم التى نسمعها كل جمعة لمن آيات الله العجيبة كما أخبرنا بها القرآن الكريم:

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا

(الكهف ٩ـ١٢)

إلى أن قال ـ جلت قدرته ـ:

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾

(الكهف ١٩)

ويحدثنا الطبرى فى تاريخه عن ذلك الرسول (اذ دخل على رجل فقال يعنى بهذه الدراهم طعاما قال من أين لك هذه الدراهم، قال خرجت وأصحاب لى أمس فآوانا الليل حتى أصبحنا فأرسلونى. فقال هذه كانت على عهد الملك فلان فأتى لك بها، فرفعه إلى الملك.. إلى آخر القصة حتى انطلقوا معه إلى الكهف).

أما عن مدة نومهم فيخبرنا الله فى كتابه العزيز وفى نفس السورة:

وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

(الكهف ٢٤، ٢٦)

تلك قصة النوم ليوم ولأيام ولأشهر ولسنين ولقرون. ثم يقوم الإنسان والحيوان من نومه صحيحا معافى ليستأنف الحياة من جديد لا يدرى كم من الزمن نام، وكم من الأيام مرت عليه. ذلك هو النوم فيه تهدأ الحياة الظاهرة كلها فتسكن الأصوات وتكون أقرب إلى الموت منها إلى الحياة. ذلك النوم الذى احتار فيه العلم والعلماء وتلك أهميته للإنسان فيه تستعيد الخلايا نشاطها إذاً فالنوم هو أسرع فى القتل من الجوع، فإذا علمنا كل ذلك أدركنا وعرفنا حقيقة أن من هذه صفاته وتلك قدرته لا يشبه شيئا ولا يشبهه شئ بل هو الحى القيوم ليس كمثله شئ.

فانعدام النوم دليل على اليقظة المستمرة، واليقظة المستمرة لابد أن تكون من صفات مبدع ذلك الكون وخالقه وإلا فإن من يأخذه النعاس فينام كان مألوف الحياة قاصرا عن الحفظ والتدبير والله يقول فى سورة البقرة:

لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

(البقرة ٢٥٥)

ويقول فى سورة الأنعام:

وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

(الأنعام ٣)

وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾

(الأنعام ١٣)

وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾

(الأنعام٥٨_٥٩)

تلك قوته وهذه عظمته فسبحانه وتعالى جلت قدرته.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ۞ ٧﴾

(سورة السجدة)

(١٣)

الإسلام ووحدة الحياة

ليس هناك شك فى أن الأرض كانت يوما ما خالية من الحياة، ثم ظهرت الحياة عليها بعد ذلك، هكذا يحدثنا القرآن الكريم، ويحدثنا التاريخ وهناك رأيان أساسيان عن ظهور الحياة على سطح الأرض يقول أحدهما إن الحياة أبدية نشأت فى عالم آخر ثم انتقلت إلى الأرض، ويحدثنا الرأى الآخر أن الحياة نشأت على الأرض، ولم تنتقل إليها من عالم آخر كما يقول الرأى الأول.

ويدعى من يعتقد فى الرأى الأول أن الحياة انتقلت من الفراغات بين الكواكب على هيئة جراثيم دقيقة مع ذرات الغبار الكونى أو بداخل الأجزاء المتحطمة من الكواكب.

وإذا سلمنا جدلا بصحة هذا الرأى، فإن هناك من يقول بأن فرصة معيشة الكائنات فى هذه الفراغات قليلة الاحتمال، وما ذلك إلا لوجود الإشعاعات القصيرة جدا، والتى تستطيع أن تقضى على الكائنات الحية فى ثوان. هذا بالإضافة إلى أن هناك سؤالا أبسط وأسهل ـ وهو ما يعنينا فعلا فى هذا المجال لم تجب عليه هذه النظرية، وهو كيف نشأت الحياة فى هذه الفراغات الموجودة بين الكواكب.

أما هؤلاء الذين يقولون بأن الحياة نشأت على الأرض، ولم تنتقل إليها من عالم

آخر، فمنهم من يقول إنها من صنع الله، ومنهم من يقول إن الحياة نشأت على الأرض من تلقاء نفسها... وإذا كان هذا يبدو عجيبا فإن أعجب منه ما كان يعتقده كثير من علماء العصور الوسطى والقديمة إن الحياة المعقدة من الممكن أن تنشأ ذاتيا، وهكذا كانوا يتصورون، ويذهب بهم الخيال إلى بعيد فيقولون مثلا إن طفيليات الأمعاء تنشأ ذاتيا من الغشاء المبطن للأمعاء نتيجة لمرض بالجهاز الهضمى.

وكانوا يقولون أيضا أن الديدان المتطفلة والحشرات وغيرها من الحيوانات مثل الفئران، تتوالد ذاتيا من القاذورات أو السماد.

بل هناك ما هو أعجب من هذا، فقد كان كتاب العصور الوسطى يؤكدون أن الثعابين غير السامة تتكون فى الأماكن الرطبة من شعر النساء... أما الثعابين السامة فتنشأ من الأعمدة الفقارية للجثث التى ارتكب أصحابها ذنوبا فى حياتهم... وهكذا كانوا يفكرون ويعتقدون أن هناك أشجار للأوز، وأشجارا للنعاج، والتى إذا أثمرت هذه الأشجار ووقعت ثمارها على الأرض تحولت هذه الثمار إلى أوز أو نعاج.

يا سبحان الله، هكذا كانوا يعتقدون ويقولون ثم كان للعلم الفضل الأكبر فى إثبات خطأ نظرية التوالد الذاتى، وإن الكائنات الحية لا تنشأ من العدم، بل تنشأ من كائنات حية أخرى.. وقد استطاع ردى ذلك العالم الإيطالى أن يثبت أن ذباب اللحم الذى يظهر على اللحوم إذا تركت مدة من الزمن لا ينشأ من اللحم، كما كانوا يعتقدون أو كما تقول نظرية التوالد الذاتى ثم استطاع باستير (١٨٢٢ـ١٨٩٥) بعد ذلك أن يثبت بالدليل القاطع أن الحياة لا تأتى من العدم، بل تأتى من حياة أخرى، وأنه من الممكن الإحتفاظ بالمواد العضوية بعد تعقيمها إلى ما لا نهاية دون فساد ودون أن ينمو عليها أى فطر أو بكتريا، أو أى نوع من الكائنات الحية الدقيقة، وهنا تتجلى أمام العالم المتفهم لشؤون الحياة وأسرارها أن الحياة لا تنشأ من العدم، بل تنشأ من حياة أخرى، وأنه لابد وأن يكون هناك خالق لهذا الوجود يحيى ويميت، وهو الحى الذى لا يموت.

وإذا كان هذا ما استطاع أن يثبته باستير فى القرن الثامن عشر، فإن القرآن الكريم ضرب لنا مثلا حيا قبل ذلك بمئات السنين حيث يحدثنا القرآن الكريم فى سورة البقرة، فيقول:

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

(البقرة ٢٥٩)

وهنا يحدثنا القرآن الكريم عن الذى مر على قرية وهى خاوية ساقطة جدرانها على سقوفها فقال كيف يحيى الله هذه القرية بعد دمارها فيميته الله مائة عام ثم يحييه ويسأله كم لبثت؟ فيقول: لبثت يوما أو بعض يوم ـ ثم يدفع الله الحجة بالحجة فيطلب منه أن ينظر إؤلى طعامه وشرابه، ولم يتغير أحدهما بمرور الزمن فلا فطر نما عليهما، ولا بكتريا ولا كائنات حية دقيقة أو كبيرة، وهكذا استطاعت قدرة الله أن تمنع هذه الكائنات من أن تتكون لتفسد هذا الشراب، وهذا الطعام ثم يحدثه عن الحجة الثالثة فيطلب منه أن ينظر إلى حماره وإلى العظام كيف يركب بعضها على البعض ثم يكسوها باللحم. ويقول سبحانه وتعالى: وما فعلنا ذلك بك إلا لتكون آية بينة لقومك فلما تبين له الحق: قال: أعلم أن الله على كل شئ قدير.

وهكذا أراد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يضرب مثلا على عدم صحة نظرية التوالد الذاتى وأن يبين ـ جلت قدرته ـ أن الكائنات الحية لا تنشأ من العدم، وهكذا أبقى عليه وعلى شرابه وطعامه مائة عام دون تغيير أو تبديل أو فساد.

ويقول سبحانه وتعالى:

أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ (مريم ٦٧)

وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ (الروم ٢٧)

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾

(الروم ٢٠)

سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

(يس ٣٦)

وبالرغم من كل هذا فهناك من العلماء من يعتقد بأن الحياة أول ما نشأت على سطح الأرض نتيجة للتطور التاريخي، والتغير المستمر للمواد غير العضوية، ويقولون أن الأرض كانت ملتهبة فى العصور القديمة تكتنفها البراكين الكثيرة الثائرة، كما كان يوجد عنصر الكربون على سطح الأرض، ويتميز الكربون بقدرته الكبيرة على الإتحاد مع الذرات فى الجزيئات المعقدة.

ثم أخذت الأرض تبرد تدريجيا وتتكون اليابسة، وتتكون البحار فى المنخفضات، ثم تكون المركبات العضوية الأولية المحتوية على الكربون، ثم أخذت جزئياتها تزداد تدريجيا وتدخل فى تفاعلات مع أكسجين الماء مكونة المواد العضوية.

ولقد كان الرأى السائد قديما أن المواد العضوية لا يمكن أن تتكون إلا داخل الكائنات الحية، ولكن بتقدم العلوم أصبح من الممكن تمثيل كثير من المواد العضوية المعقدة. ولعل هذا هو السبب الذى جعل كثير من العلماء يتصورون أنه فى الإمكان خلق المادة الحية داخل أنابيب الإختبار.. والحقيقة إذا كان العلم قد استطاع حقا أن

يكون كثيرا من المواد العضوية إلا أن عنصر الحياة شيء آخر. والبروتوبلازم معروف تركيبه، ومن الممكن تحضير مكوناته، ولكن الإنسان عاجز من غير شك عن أن يهب هذه المادة الحياة، لأن الحياة لا توهب إلا ممن خلق الحياة وأوجد الوجود، وهى الحى الذى يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير.

ولنستمع لقوله سبحانه وتعالى:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ

(الحج ٧٣)

وهنا يحدثنا القرآن الكريم عن الذباب وتكوينه والذى كان منه ذباب اللحم الذى ظنوا أنه يتكون ذاتيا على اللحم، والذى دعا العلماء أن يفكروا ويضعوا نظرية الخلق الذاتى.. فيقول لن تستطيعوا أن تخلقوا ذبابا لا أنتم ولا ما تعبدون من دون الله.

ولكن لماذا ننظر إلى الإنسان وإلى الحيوان لنعرف قدرة الله، بل تعالوا ننظر الى أصغر ما فى الإنسان، وما فى الحيوان من وحدات تتكون منها أنسجته وأعضائه وهى الخلية الحية التى يتراوح حجمها بين ١٠ـ١٠٠ ميكرون. تلك الخلية التى بها من المكونات والتنظيم ما لا يمكن أن يكون من صنع الصدفة أو صنع إنسان مهما كان، بل لابد وأن تكون من صنع قوة عليا مفكرة مدبرة.

فالخلية وهى الوحدة التى منها تتكون الكائنات الحية تختلف فى الحجم اختلافا بينا، فمنها ما لاتدركه العين المجردة، ومنها ما تستطيع أن تدركه بل تستطيع اليد أن تلمسه، وتمسك به كبيض الطيور الذى يعتبر من أكبر الخلايا حجما ووزنا فبيض النعام على سبيل المثال يتراوح وزنه من ١٠٠ جرام ـ ١٠٠٠ جرام بينما وزن كرة الدم الحمراء للضفدعة مثلا أو الحيوان المنوى للإنسان حوالى ٠,٠٠٠٠٠٠٠٠١ جرام).

وكما تختلف الخلية فى الوزن أيضا فى الشكل تبعا لإختلاف الوظيفة التى خلقت لها، وهذا أيضا ترتيب وتنظيم تدبره وتنظمه القوة العليا التى خلقت وفكرت ودبرت فمن الخلايا ما هو كروى، ومنها ما هو نجمى، ومنها ما له زوائد ومنها ما هو مزود بأهداب ومنها ما له القدرة على تغيير شكله. ويحيط بالخلية غشاء رقيق نصف نفاذ، ولو أن هذا الغشاء أشد صلابة فى الخلايا النباتية إذ يتكون من السليولوز. وجدار الخلية هذا جزء حى معجز حقا فهو يقوم بحماية الخلية مما قد تتعرض له من بيئتها الخارجية كما يقوم بتنظيم محتويات الخلية، فعن طريقه تدخل المواد الغذائية، وتخرج الفضلات والإفرازات، ولابد أن يمر كليهما عن طريق هذا الجدار الذى يسمح بمرور ما يريد، ويمنع من المرور ما لايريد.. ولهذا نجد به العديد من الفتحات الدقيقة التى يتصل عن طريقها سيتوبلازم الخلية بسيتوبلازم الخلايا الأخرى المجاورة لها، ويمكننا أن نقول دون مبالغة أن حيوية الخلية وما يحدث فيها من تغيرات كيمياوية وكهربية وفيزيائية وحرارية، معجز حقا لم يستطع العلماء له قياسا كما عجزوا أن يجدوا له تفسيرا.

ويملأ الخلية السيتوبلازم أو المادة الحية، والتى يمكن أن نميز فيها العديد من المكونات ذات التركيب الحبيبى، ولقد كان الفضل للميكروسكوب الإلكترونى، وكذلك التحاليل الكيميائية الدقيقة فى معرفة التركيب التفصيلى لهذه المادة.

وينتشر فى السيتوبلازم هذا مختلف أعضاء الخلية، وأهم هذه الأعضاء ما يسمى بالنواة التى غالبا ما تكون كروية الشكل أو بيضاوية، أو قد تأخذ أشكالا أخرى. وتحتوى الخلية عادة على نواة واحدة ولو أن من الخلايا ما يحتوى على أكثر من نواه، كما أن منها ما لا يحتوى على نواة ككرات الدم الحمراء فى الثدييات التى تفقد نواتها أثناء عملية النضج فتصبح عديمة النواه أو هكذا تبدو.

وتقوم هذه النواة بتنظيم العلميات الحيوية فى الخلية، وتدل التجارب على أن الخلية تموت إذا فقدت نواتها، وقد أمكن إثبات هذا فى الحيوان الوحيد الخلية المسمى

بالأميبا التى إذا انشطر جسمها شطرين يحتوى أحدهما على النواة، كانت النتيجة أن هذا الجزء يحيا ويعيش، بينما الجزء الآخر يفنى ويموت.

ومن أمثلة هذه التجارب يتضح أن النواة لازمة لحياة الخلية كما أنها لازمة لقيامها بوظائفها الحيوية فهى تقوم بإفراز مواد عدة تنتشر فى السيتوبلازم.

وكثيرا ما نشاهد فى الكائنات وحيدة الخلية النواة، وهى تتجول فى أنحاء الخلية حتى أنه ليقال أنها إنما تفعل هذا لتباشر عن كثب أوجه النشاط المختلفة فى مملكتها الصغيرة فى أى وقت من الأوقات.

وإذا فحصت النواة مجهريا رؤى بداخلها نوية أو عدة نويات مطمورة فى الجزء السائل من النواة وتستطيع هذه النويات أن تغير شكلها كما أنها قد تختفى تماما أو تظهر مرة ثانية.

وأثناء عملية الإنقسام تتحول محتويات النواة إلى خيوط طويلة تسمى بالكروموسومات، والتى يختلف عددها تبعا لنوع الحيوان، وتحمل هذه الكروموسومات الجينات المختلفة التى تحمل الصفات المختلفة.. وإذا كان تركيب الكروموسومات قد عرف أنه من مادة تسمى ديزوكس ريبونيكليك، فإن تركيب الجينات قد عرف أيضا وأصبح من الممكن التلاعب فى ترتيبها حتى تنتج صفات مختلفة. وتتحكم هذه الجينات فى عمليات الأيض، كما أنها ترسم طريقة عمل الإنزيمات المختلفة فى الخلية.

وقد استطاع الميكروسكوب الإلكترونى أن يبين أن للنواة غلاف مزدوج رقيق جدا يحيط بها، كما توجد به مسام ميكروسكوبية دقيقة جدا.

ويحتوى السيتوبلازم أيضا على ما يسمى بالميتاكوندريا أو السبحيات، وهى أجسام كروية أو عضوية أو شريطية متحركة بالغة الدقة، وتقوم هذه السبحيات بالدور الرئيسى فى العمليات الحيوية الهامة بالخلية، وهى غنية بالأنزيمات التى قد يزيد عددها عن

السبعين، ومنها الإنزيمات التى تقوم بعملية الأكسدة والتى يتم عن طريقها تنفس الخلية. كما أن منها مجموعة تقوم بعمليات التمثيل فى الخلية، ومن ثم فإن هذه السبحيات بوجه عام هى العامل الرئيسى التى تعتمد عليه الخلية فى عملية الأيض.

وهذه السبحيات شديدة الحساسية للمخدرات المختلفة، ولذلك فإن أى حدث خارجى ضار يؤثر تأثيرا مباشرا على هذه السبحيات وما فيها من أنزيمات.

وفى الخلية أيضا ما يظهر كشبكة حبيبية أو شريطية أو عضوية مكونة ما يسمى بجهاز جولجى. ويوجد هذا فى كل الخلايا الخاصة ما عدا الحيوانات المنوية والكريات الدموية الحمراء، ومن المعتقد أن هذا الجهاز يلعب دورا هاما فى النشاط الإفرازى للخلية الحيوانية، ومنها إفراز الهرمونات وإفراز كثير من الإنزيمات كما أنه يشترك فى إفراز فيتامين جـ.

وبالخلية أيضا فجوات هى عبارة عن فقاقيع مملوءة بالسائل الخلوى وتقوم هذه الفجوات فى الحيوانات وحيدة الخلية بوظيفة الهضم للمواد الغذائية، وعندئذ تسمى بالفجوات الهضمية، وتقوم هذه الفجوات عموما بتنظيم تركيز الأملاح المعدنية، كما تؤدى وظائف الإخراج كما هو الحال فى البراميسيوم، عندئذ لا تسمى هذه الفجوات بالفجوات الهضمية بل تسمى بالفجوات المنقبضة.

كما يوجد بالسيتوبلازم أيضا حبيبات دقيقة تنتشر فى أنحاؤه تسمى الريبوسومات، وهى عبارة عن حامض الريبونيكليك، ومواد بروتينية أخرى وتقوم هذه الحبيبات بدور كبير فى عملية تمثيل المواد البروتينية. كما تحتوى الخلية على كميات ضخمة من الانزيمات يصل تعدادها إلى الآلاف، وهى إما ذائبة أو منتشرة أو موجودة فى جسيمات تسمى بالليزوزومات، وهذه الإنزيمات لها أهميتها فى كل من عمليتى الهدم والبناء.

وتحتوى أغلب الخلايا النباتية على البلاستيدات التى لها القدرة على النمو والإنقسام

أيضا وتوجد منها أنواع البلاستيدات الخضراء التى تحتوى على الكلوروفيل والبلاستيدات عديمة اللون، والبلاستيدات الملونة والتى تحتوى على الأصباغ النباتية ذات الألوان المختلفة التى تشاهد فى أوراق الأزهار والثمار وغيرها.

وبالخلية عضو هام آخر له أهيمته فى تكاثر الخلايا وهو ما يسمى بالسنتروزوم أو الجسم المركزى، ويتكون من جسمين فى شكل كروى أو عصوى، ويتجه أثناء الإنقسام كل من هذه الجسمين إلى أحد القطبين، ويتكون بينهما ما يسمى بمعزل الإنقسام وهو عبارة عن خيوط ممتدة تقوم بجذب الكروموزومات بعد انشطارها الى قطبى الخلية.

ويوجد بالخلية أيضا مواد معدنية وعضوية مختلفة تظهر فى شكل حبيبات أو بللورات عبارة عن مواد غذائية مختزنة أو هى نواتج ما يتبقى من عمليات التمثيل بالخلية.

تلك هى الخلية بإختصار والتى كما يقال يتكون جسم الواحد منها من عدد من الخلايا قد يكون ٣٥٠ بليون أو يزيد.. وسبحانه وتعالى:

ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٨﴾ (السجدة ٧ – ٨)

وللخلايا الحية ميل ورغبة فى النمو وإلا لما كانت هناك حاجة إلى التكاثر، ولبقيت كما هى دون تغيير. ولعل حاجة الخلايا إلى إدخال المواد الخارجية إلى أجسامها حبا فى البقاء ورغبة فى الحياة قد أدى إلى إمتصاص كميات تزيد عما تحتاج إليه، وذلك طبعا تأمينا لسلامتها وحياتها، ولكن بدلا من أن تتصرف هذه الخلايا فيما يفيض، تعمد إلى أن تنقسم إلى قسمين، وهى إنما تفعل هذا على أساس كمى وثيق فكل من الخليتين الجديدتين تنال نصف مكونات الخلية الأم تماما وهكذا تصبح الخلية

الجديدة صورة مطابقة لصورة الأم غير أنها أصغر حجما، ثم تنمو هذه الخلية وتنقسم وهكذا ولعل هذا هو أساس التكوين أو بداية التكاثر.

وقدرة الخلية على الإنقسام هو سر من أسرار الطبيعة، فالجنين عبارة عن اتحاد خليتين مستقلتين أحدهما من الأم، والأخرى من الأب وهما البويضة والحيوان المنوى، وعندما يتحدان يتكون الزيجوت الذى له القدرة على الإنقسام ليعطى خلايا مختلفة تنتظم فى أنسجة، وتنتظم الأنسجة فى أعضاء، وتكون الأعضاء كائنا حيا جديدا.

والزيجوت كتاب مغلق يضم بين صفحاته تاريخا كاملا لكائن حى فإذا فتحنا الغلاف أو إذا شئنا أن نقول دخلنا إلى داخل الخلية وجدنا صفحات مكتوبة على الكروموسومات سطورها الجينات، وإذا استطعنا أن نقرأ ما تحكيه السطور لقرأنا لون العيون وشكلها وطول الكائن الحى أو قصره، ولون الشعر وتقاسيم الوجه، وهكذا تحكى هذه السطور قصة كاملة لما سيكون عليه هذا الجنين من مظهر، وما يكون له من صفات جمعها من الأم، ومن الأب على حد سواء.

هذا عالم الخلية بإختصار، وهو عالم كبير رغم صغر حجمه، وقد وصل العلم إلى دراسة هذه المكونات وغيرها على مستوى الجزيئات، وقد أتاحت وستتيح هذه الدراسات الوصول إلى معرفة الكثير من أسرار العمليات الحيوية التى تقوم بها الخلية الواحدة ولكن لا تزال هناك أسرارا غامضة لم يستطع العلم بعد معرفة كنهها.

وهناك سؤال يحتار فيه العلم ويحتار فيه العلماء، وهو هل نستطيع أن نصل إلى سر الحياة وقد عرفنا أنها عبارة عن مجموعة من العمليات الحية ترتبط ببعضها ارتباطا وثيقا. وهل يستطيع الإنسان فى يوم ما أن يقوم بصنع هذه العمليات وربطها بعضها ببعض فى وحدة خلوية واحدة لا يبلغ حجمها عدة ميكرونات، وهل ستتحقق هذه المعجزة ويصنع الكائن الحى ممثلا فى خليته.

لقد أجريت تجارب خطيرة فى هذا الإتجاه، وقد استطاع بعض العلماء من دراستهم على الفيروسات أن يكونوا فيروسات، وكانت مادتهم الخام فيروسات أخرى أى أنهم لم يأتوا بجديد.. والسؤال الآن هل هذه الفيروسات كائنات حية، أم لا.. والإجابة سواء أكانت بالنفى أو الإيجاب، فإن الفيروسات المصنوعة قد صنعت من مادة فيروسات أخرى فكأنه ليس هناك خلق جديد إذ لم تصنع هذه الكائنات من مواد خام صنعت هى الأخرى بيد البشر.

ولكى يتضح الأمر نستطيع أن نقول أن الفيروسات عبارة عن أحد الصور الأولية لوجود الأجسام البروتينية فهى وسط بين الكائنات الحية، والمواد الغير حية. فهى لا تتكون من خلايا وليس لها نواة وليسَ بها سيتوبلازم، ولا ما به من أعضاء ولا يمكنها أن تتكاثر خارج الكائن الحى الذى تصيبه. أما إذا دخلت هذه الفيروسات خلايا كائنا حيا فإنها تتكاثر وتنقل الصفات الوراثية الخاصة بها إلى جيلها الجديد، وهذا ما يجعلها قريبة من الكائنات الحية.

وقد أمكن الحصول على بعض الفيروسات فى صورة بللورات من النوكليوبروتيد، حيث أنها عبارة عن إتحاد بين البروتين والأحماض النووية، ويمكن إذابة هذه البللورات مرة أخرى ثم ترسيبها وإعادة تبلورها دون أن تفقد الصفات الحيوية التى تخصها.

وإنى أوقن أن الوصول إلى القمر أو إلى أى كوكب آخر أقرب بكثير من الوصول الى خلق خلية حية، وذلك نتيجة لحقائق علمية بيولوجية ثابتة. فإذا استطعنا أن نخلق المادة العضوية فكيف نبث فيها روح العمل البيولوجى ونعطيها نفحة الحياة.. تلك القدرة التى ينفرد بها سبحانه وتعالى، فهو الخالق المصور والمدبر وسبحانه وتعالى القائل:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾

(الإسراء ٨٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم
مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

(سورة الإسراء)

(١٤)

الـــروح

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى
وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

(سورة الإسراء ٨٥)

حديث الروح حديث يلعب بالكثير من عقول الناس، فمنهم مؤمن بالروح، ومنهم من هو ناكر لها، ومنهم من يقول أن الموت إنعدام للشخص ونهاية للحياة، فلا ألم ولا عقاب ولا نعيم ولا عذاب ولكنها الحياة قد انتهت بخروج الروح وفناء الجسد، ومنه من اتخذها موضوعا للبحث والدراسة، ومنهم من ذهب إلى ما هو أكثر من ذلك وأبعد فقالوا إنهم رأوها رأى للعين ولمسوها باليد، ومنهم من إدعى أنه أخذ لها صورا فوتوغرافية عرضها على الناس ونشرها فى الكتب، وهكذا كان الحديث ينتقل من جهة إلى أخرى والجدال يشتد من ناحية والحوار يقوى والأصوات ترتفع، وكل يدلى بما سمع وما قرأ ومنهم من يدعى أنه رأى أو لمس وطال الحديث وطال الجدال الى أن سألنى صديقى وهو يحاورنى عما قال القرآن، وما قال الرسول فى الروح: «قلت إن هذا السؤال بعينه قد سألته قريش للنبى صلى الله عليه وسلم فنزل عليه الوحى من ربه قائلا:

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

ولكن قريشا لا تجد فى ذلك القول ما يشفى صدورها ويروى غلتها فيتهموا الرسول بالعجز فيقول لهم عتبة: (والله ما هو بعاجز، وما كذبكم فى هذا شيئا إن الروح لا يمكن أن تكون من أمر بشر لقد أصدقكم، وما كان عليه ولو أنه نبى كاذب أن يقول لكم فى أمرها قولا أو يصف لكم وصفا يسكتكم).

وصدق رسول الله عليه الصلاة والسلام فالروح من أمر الله، ولا يمكن أن تكون من أمر بشر فسبحانه وتعالى القائل:

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ (الحجر ٢٩)

فما الموت إلا تغير فى الحال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة، ومفارقة الروح للجسد هى انقطاعها عن التصرف فيه وفقدانها السيطرة عليه وخروجه عن طاعتها، فإن الأعضاء كلها آلات للروح ومعالم لها تستعملها وتستخدمها ما دامت هى المسيطرة على الجسد، وما دامت هى الحاكمة الآمرة فإذا انعدمت الصلة بين الجسد والروح وحصلت المفارقة انتقل الجسم من حال الى حال وهكذا تنتهى حياة الإنسان، ويموت وتذهب الروح إلى عالم آخر حيث الثواب والعقاب.

أما حقيقة الموت وكنهه فلا نستطيع أن نكشف عنها الغطاء، وكيف نستطيع ونحن لما نفهم بعد حقيقة الحياة وسرها، ومن لا يفهم حقيقة الحياة لا يستطيع أن يعرف حقيقة الموت، فالإنسان لا يزال عاجزا أمام ظاهرة النوم أو ما يسمونه الموته الصغرى، تلك الظاهرة التى لم يعرف العلم بعد كنهها وأسبابها كلها، ولو أننا نعرف أن النوم ناشئ من تغيرات كيميائية تحدث من الحركة فى الأنسجة، وتلك التغيرات التى تحدث فى الأنسجة وقت الحركة هى سبب الإستراحة والنوم الذى به تستعيد سيرتها الأولى كما كانت وهكذا تستمر الحياة نهارا والموت الوقتى ليلا فالنوم ضرورى للحياة، كما أن الحياة والحركة ضروريتان للنوم، فسبحان من لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض.

فإذا كان التفكير فى النوم وسره بمعجز فالتفكير فى الأحلام وسرها معجز، كذلك فالإنسان ينام ويحلم ولا يعرف أنه فى حلم بل إنه فى حياة حقيقية ملموسة فهو يتألم فى حلمه، ويفرح ويتحرك وينتقل بل ربما ركب الطائرة وساقها بنفسه، وهو الذى لم يركبها طيلة حياته، وغير ذلك من الأفعال والمؤثرات والإنفعالات والحركات، وكثيرا ما يوقظه الألم والفزع أو يذهب بنومه الفرح والألم وعندئذ يدرك الحقيقة السافرة ويعلم أنه فى حلم وأن لا حقيقة لذلك الألم ولا لذلك الفرح، وأنه فى فراشه لم يتحرك، ولم يتغير وأنه قد مضى عليه من الوقت أقل مما فات وتصور فسبحانه وتعالى القائل:

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

(البقرة ٢٥٩)

ومثل هذا يحدث كل يوم فربما يستغرق النوم ساعة من الزمان لا أكثر، ولا أقل ويطول الحلم وتستغرق حوادثه من الوقت ما لا يتسع له أسبوع أو أكثر فالإنسان فى الحلم يخضع لنواميس غير تلك النواميس فالوقت فيه غير ذلك الوقت والقدرة غير تلك القدرة، حرية مطلقة فى الحركة والتصور حرية مطلقة فى الفكر حرية مطلقة فى كل شيء فهو لا يتقيد بذلك الجسد الثقيل، وقد غلبه النوم ولا بذلك الفكر الإنسانى المحدود ولا بتلك الساعة التى يحدها عدد من الدقائق معلوم ومعروف، وهنا تدرك السر والقدرة فى قوله تعالى :

وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ (الحج ٤٧)

فمن يدرى فلعلنا فى حياتنا هذه فى حلم طويل سنفيق منه إذا ما متنا عندئذ تدرك صدق من قال «الناس نيام فإذا ما ماتوا انتبهوا».

والنبى صلى الله عليه وسلم لم يزد عن أن الروح من أمر الله فحقيقة الروح فى ذاتها لا يستطيع أن يكشف عنها أى مخلوق، وأن كل ما يعنينا هو حال الروح بعد الموت وعدم انعدامها بعد ذلك، وما الموت إلا انطلاقا من عقالها فتسبح حرة طليقة بعيدة عن ذلك الجسد البالى كما تسبح فى حالة الحلم لا يحد حركتها مكان، ولا يقف أمامه حاجز ولا تخضع لزمان ولا لسلطة مخلوق مهما كان. وقد قال تعالى:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

(آل عمران ١٦٩ – ١٧١)

وقوله تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (الجمعة ٨)

ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يا أهل القليب بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم كذبتمونى وصدقنى الناس، وأخرجتمونى وآوانى الناس، وقاتلتمونى ونصرنى الناس، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا).

فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات فقال صلوات الله عليه (أو الذى نفسى بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب).

وقال صلى الله عليه وسلم: (لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم

منها سمينا) وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس ورد عليه حتى يقوم). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ما الميت فى قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوه تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا، وما فيها وأن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار).

وقال رسول الله صلوات الله عليه (إن مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه).

هذا قليل من كثير مما أخبر به الرسول عن الحياة بعد الموت وسأذكر بعض ما ذكره الخلف الصالح عن ذلك.

قال رجل من آل عاصم الجحدرى (رأيت عاصما فى منامى بعد موته بسنتين فقلت: أليس قد مت، قال بلى. فقلت: أين أنت، فقال أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر بن عبدالله المازنى فتتلاقى أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم قال هيهات بليت الأجسام إنما تتلاقى الأرواح قال قلت: هل تعلمون بزيارتنا إياكم قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذاك دون الأيام كلها قال نفضل يوم الجمعة وعظمته.

وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانه، فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال: «آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتك). لا يزيد على هذه الكلمات. فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلى، ولم آت المقابر فأدعو كما كنت أدعو فبينما أنا نائم إذ بخلق كثير قد جاءونى فقلت: ما أنتم وما حاجتكم قالوا نحن أهل المقابر قلت ما جاء بكم قالوا أنك عودتنا منك هديه عند انصرافك الى أهلك قلت: وما هى:

قالوا: الدعوات التى كنت تدعو لنا بها قلت فإنى أعود بذلك فما تركتها بعد ذلك.

هذا قليل من كثير مما يدل على أن الموت تغير فى الحال فقط وأن الروح حقيقة لا مراء فيها وأنها من أمر الله، وما أوتينا من العلم إلا قليلا.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ
لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّارِبِينَ ٦٦

(سورة النحل)

(١٥)

اللبن الخالص

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾

(سورة النحل ٦٦)

اللبن ذلك الغذاء الأبيض الجميل ذو الطعم الحلو المقبول، عليه يعتمد الأطفال حديثو الولادة اعتمادا كليا. كيف لا وقد خصته الطبيعة وهيئته ليكون غذاء أساسيا يحتوى على مواد الغذاء اللازمة للنمو من دهنيات وبروتينات ومواد سكرية وماء مضاف الى كل ذلك أملاح معدنية وفيتامينات.

أما كيف يتكون ذلك اللبن فى الجسم، ومن أى المواد يستخلص فيخبرنا القرآن الكريم عن ذلك فى أسلوب سهل واختصار معجز فى سورة النمل:

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ (سورة النحل ٦٦)

والفرث هو الغذاء المهضوم والدم هو ذلك السائل المعروف المتجول فى الجسم فيقول القرآن الكريم إنه من بين ذلك الفرث، وذلك الدم يخرج اللبن الأبيض خالصا

لا هو كالأكل المهضوم فى الرائحة والشكل والطعم، ولا هو كالدم فى التركيب واللون، خالصا من هذا، وذلك حلو المذاق سائغا للشاربين.

فللغذاء كما يقول القرآن أهميته وللدم أيضا أهميته، وكل منهما له دوره وعمله وكل منهما متمم للآخر، فالغذاء وحده عاجز، والدم وحده غير مستطيع ولا قادر ولكن إذا أدى الغذاء وظيفته وتعاون معه الدم بقدرته استقام الأمر واستمر الإفراز وحسن نوع اللبن وزادت كميته.

واللبن كما قلنا يحتوى على دهنيات وبروتينات ومواد سكرية وأملاح معدنية وماء، فلننظر فى دور الغذاء ودور الدم فى كل من هذه المركبات.

أما دهن اللبن فإن للغذاء تأثير كبير فى نسبته، فإذا قلت نسبة الدهن فى الغذاء أخذ اللبن حاجته مما هو مختزن فى الجسم من دهون وقد لوحظ بالتجربة أنه إذا أعطى الحيوان فى غذائه اليومى من نصف جرام إلى جرام من الدهن لكل كيلو جرام من وزنه فإن كمية الدهن فى اللبن تزيد كثيرا، وبذا تزيد قيمته الحرارية والغذائية. أما إذا منع الدهن من الطعام، واستبدل بمائيات الكربون فإن نسبة الدهن فى اللبن تقل كما فى حالة الأغنام.

أما البرتينات فإن نسبتها فى اللبن لا تتغير إلا قليلا جدا بتغير الغذاء حتى وإن خلا من البروتينات واضطر الحيوان أن يلجأ إلى أنسجة لجسم لتكوين بروتين اللبن. وقد وجدتا نفس النتيجة فى السيدات المرضعات. ولعل ذلك يرجع الى أن الكاسينوجين وهو بروتين اللبن ينتج من تحول الأحماض الأمينية الموجودة فى الدم، هذا ولو أن زيادة كمية البروتين فى الطعام لا تؤثر فى زيادة نسبته فى اللبن إلا أن لها تأثيرا كبيرا فى زيادة كميته.

أما المواد السكرية فإن اللاكتوز وهو سكر اللبن ينتج من ذلك السكر الموجود فى الدم

ولعل التجربة الآتية تثبت صحة ذلك. فقد وجد أن قطعا من غدد اللبن تستطيع أن تحول الجلوكوز وهو السكر الموجود فى الدم إلى لاكتوز وهو سكر اللبن، ولا تستطيع أن حول الفركتوز مثلا أو المانوز إلى لاكتوز. وتبقى نسبة سكر اللبن ثابتة مع تغيركميةمائيات الكربون فى الطعام، وحتى مع تقليل كمية السكر الموجود فى جسم الحيوان بحقنه بمادة «الفلوردزين» التى تسبب إفراز السكر بالبول.

أما المركبات الفوسفورية فى اللبن فإنها تنتج من المركبات الغير عضوية الفوسفورية الموجودة فى الدم. ولا تتغير نسبة الأملاح المعدنية فى اللبن حتى إذا كانت ناقصة فى الطعام، فقد وجد مثلا أنه إذا كان طعام البقرة أو السيدة المرضع ناقصا من أملاح الجير بقيت نسبة الجير فى اللبن ثابتة. وما ذلك إلا بما تفقده عظام الأم من أملاح الجير حتى تبقى نسبته فى اللبن ثابتة. وهكذا تهدم الأم عظامها لتبنى عظام طفلها، وفى ذلك قدرة وعبره وإلا فكيف تستطيع الأم أيا كان نوعها أو جنسها أن تدرك أن جير البن قد قل فيأخذ الدم من العظم حاجته، ويمد به اللبن فيعوضه ما نقص من طعامه وغذائه ولا يقتصر الأمر على ذلك فقط بل أنه إذا أضيف إلى الطعام كميات كبيرة من الأملاح المعدنية مثل ملح الطعام وفوسفات الجير والمغنسيوم والصوديوم لا تزيد نسبة هذه الأملاح، وإلا انقلبت الآية وفسد الطعام، وهكذا تسيطر على إفراز اللبن قدرة وقوة فتعوضه ما يفقد وتدفع عنه ما يزيد عن الطلب.

كل ذلك يسير بنظام دقيق بعيد عن تفكير الإنسان وقدرته ومعرفته وقوته.

أما الفيتامينات فإنها تزداد إذا تغذى الحيوان على غذاء غنى بها، ففى البقرة تزداد كمية الفيتامين أ، د إذا تغذت البقرة على المراعى الخضراء وتقل كثيرا عندما تعطى لبقرة غذاء جافا، ولأشعة الشمس تأثير كبير فى زيادة كمية الفيتامين د فى اللبن، ذلك الفيتامين الواقى من مرض الكساح فغيابه عن الطعام يعوق نمو العظام ويسبب تلفا فى الأسنان، ومن هذا تتضح ضروريته للأطفال.

ولعل هذا يعطينا فكرة عن دور الغذاء ودور الدم، فإذا كان للغذاء أثره العظيم فى زيادة نسبة الدهن والفيتامينات فإن نسبة البروتين وسكر اللبن والأملاح المعدنية لا تتأثر كثيرا بنوع الغذاء وكميته.

وإذا كان لابد لكل آلة من سائق، ولكل فعل من محرض ودافع، فإن الغدة النخامية وهى إحدى الغدد الصماء، أى التى ليس لها قنوات تنقل الإفراز، بل تصب إفرازها فى الدم مباشرة فينقله إلى جميع أجزاء الجسم. والفص الأمامى من تلك الغدة يفرز هرمونا خاصا يسمى البرولاكتين- لم يعرف إلا فى عام ١٩٣٠ عندما أثبت كورنر أن الجسم الأصغر ليس له أى تأثير على التغيرات التى تحدث فى غدد اللبن، وإنما هو إفراز من الفص الأمامى للغدة النخامية صاحب الأثر الفعال.

وفى عام ١٩٣٣ أثبت تومسن وآخرين (Thomson & Others) آن استئصال الفص الأمامى من الغدة النخامية يمنع إفراز اللبن فى الحال. وبعد محاولات عديدة أمكن استخلاص ذلك الهرمون نقيا وإفراز اللبن يمكن أن يحصل بتأثير البرولاكتين وحده فى حالة البلوغ، وفى حالة النمو الكامل لغدد اللبن.

وفى عام ١٩٣٤ أثبت ميلر وآخرين (Miller & Others) أنه إذا حقنت بالبرولاكتين امرأة حديثة الولادة، وقد امتنع إفراز اللبن لمدة أسبوع أفرزت اللبن فى الحال.

وهذا هو تأثير البرولاكتين وهو الهرمون المسيطر على غدد اللبن، وهو لا يفرز فى حالات بعيدة عن حالات الحمل، ولذلك فإنه يظن أنه ينتج من تأثيرها على خلايا الحمل التى تدين بوجودها إلى تأثير الفوليكيولين (Folliculin). ومن كل هذا نرى تأثير الغذاء وتأثير الدم، فإذا كان الغذاء يمد اللبن بدهنه فإن الدم يشترك فيه بالبروتين والمواد السكرية والمركبات الفوسفورية علاوة على البرولاكتين الذى يصل غدد اللبن بطريق الدم.

ومعلوم أن مصدر جميع المواد الموجودة بالجسم والمختزنة فيه يصل إلى الحيوان عن

طريق البطن من غذاء وسبحانه وتعالى القائل:

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١)﴾ (المؤمنون ٢١)

وبالرغم من كل ذلك فإننا لا نعرف شيئا عن حقيقة الإفراز وكيفيته، فالإفراز فى نفسه إعجاز واحتفاظ اللبن بتركيبه مهما نقصت المواد أو زادت فى الغذاء إعجاز وأى إعجاز، ولا يقتصر الإعجاز على الإفراز وحده بل الإعجاز أيضا فى تركيبه. ولو أن لبن كل الحيوانات يتحدد فى المركبات الأساسية إلا أنه يختلف بإختلاف نسب هذه المواد بحيث يكون أكثر ملاءمة لطفل ذلك الحيوان، فهو أنسب له من أى لبن آخر، ويكفى أن تعرف أنه لو تبادلت أمان طفليهما الناميين جيدا والمتساويين فى العمر، فمن المحتمل جدا أن كلا الطفلين يشكو سوء الهضم والإضطراب المعوى، ويكفى أن تعرف أيضا أن نسبة الوفيات بين الأطفال المغذين صناعيا بلغت ستين مرة كتلك التى تحدث بين الذين يغذون طبيعيا، ولا يقتصر الأمر عند ذلك الحد بل إن الطفل المغذى صناعيا يكون أكثر تعرضا لأمراض الصدر والتقلبات المعوية من ذلك الطفل الذى يتغذى على لبن أمه.

ذلك هو اللبن وهذا قليل من كثير، فسبحانه وتعالى القائل:

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)﴾

(لقمان ١١)

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾

(سورة يس)

(١٦)

الشجر الأخضر والنار

وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ
بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

(الرعد ٤)

ويقول سبحانه وتعالى أيضا:

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ
مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ
﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

(يس ٣٣ـ٣٦)

وهكذا يحدثنا القرآن الكريم عن الأعناب والنخيل، ويحدثنا عن النبات والزرع وما تنبت الأرض من كل زوج بهيج.. وكيف يحيى الله الأرض الميتة فيخرج منها الحب الذى نأكل والأشجار التى تثمر من رمان وزيتون ونخيل وأعناب، وغير ذلك من نعم الله جلت قدرته وتعالت صفته. ولا يحدثنا القرآن الكريم عن ذلك لمجرد الحديث، ولكن ليرينا كيف نفكر فى خلق الله وقدرته وعظمته. وكيف نتدبر آياته وحكمه

فنؤمن بألوهيته ونقر بعظمته وقدرته. وكيف لا وكل ما فى الأرض جميعا مسخر لنا لنطمئن فى حياتنا ونسعد فى معاشنا فاستمعوا لقوله سبحانه وتعالى:

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ (الجاثية ١٣)

حتى إذا نظر الإنسان إلى ذلك الكون وفكر وشعر بما يحيط به من نعم كان واجبا عليه أن يشكر الله عليها وبنعمة ربه يتحدث. ويحدثه القرآن الكريم عن ذلك الشجر الأخضر، وكيف يجعل منه نارا ننتفع بها ونستخدمها فى حياتنا ومعاشنا من أكل وشرب ولوازم الحياة كلها لا يمكن أن نستغنى فيها عن النار والوقود وهما عصب الحياة ومصدر الطاقة فيقول سبحانه وتعالى:

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ (يس ٧٨-٨٠)

وفى هذه الآيات الكريمة يحدثنا القرآن الكريم أولا عمن نسى أو تناسى كيف خلق وم خلق ويسأل من يحيى العظام، وهى رميم؟ وهو يظن أنه بسؤاله هذا سيعجز سيد الأنام. من يحيى العظام وهى رميم من يحيى هذه العظام بعد أن تبلى وتتفرق وتأكلها الأرض وتتمزق أجزاؤها ويقول سبحانه وتعالى: (قل يا محمد ردا على هذا الجاحد المنكر وذكره بما نسيه وغفل عنه وعميت بصيرته عن إدراك حقيقته)

قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ

يا سبحان الله رد موجز وعلى قدر إيجازه يكون إعجازه كيف لا فإن الله الذى خلق الإنسان من طين، ثم نطفة، ثم علقة، ثم من مضغة مخلقة، وغير مخلقة، قادر على أن يحيى العظام وهى رميم. فمن الأرض نشأنا وإلى الأرض نعود، ومن الأرض نبعث

مرة أخرى وسبحانه القائل:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾ (القيامة ١ـ٤)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣﴾

(المعارج ٤٣)

ويحدثنا القرآن الكريم فى آيات أخر فيقول:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧﴾ (سبأ ٧)

أى أنكم إذا متم وبليت أجسامكم وتناثرت أجزاؤها هنا وهناك إنكم لفى خلق جديد، أى أن من أنشأكم وأحياكم من العدم فى المرة الأولى قادر على أن يجمع كل هذه الأجزاء المبعثرة المتناثرة ويحييها مرة أخرى، بعد هذا الفناء الذى ظننتم أن لا قيام ولا حياة بعده...

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦﴾ (البروج ١٣ ـ ١٦)

ويحدثنا القرآن الكريم فى نفس الآية السابقة فى أول هذا الحديث منتقلا الى معجزة أخرى فيقول:

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾

(يس ٨٠)

وهذا مثال آخر لخلق شئ آخر يختلف. فهو الذى يحيى الأرض بعد موتها. وهو وحده فالق الحب والنوى. وهو وحده الذى ينبت الزرع فإذا بالحياة تدب فى هذه النباتات الخضراء الرطبة، وهى بالرغم من خضرتها ورطوبتها جعلها من خلقها مصدرا للنار التى توقدها. إن من هذا فعله وهذه قدرته كيف لا يكون قادرا على جمع العظام، وهى رميم وإحيائها بعد العدم وتقول بعض التفاسير بخصوص هذه الآية الكريمة، وهو الذى خلق فى جميع الشجر الأخضر نارا خصوصا شجر المرخ والعفار (وهما شجرتان معروفتان فى بلاد العرب) حتى إذا سحق الأول على الثانى وهما خضراوان تنقدح النار بإذن الله:

فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ (يس ٨٠)

أى فإذا أنتم من ذلك الشجر الأخضر توقدون نارا.

ولم نذهب بعيدا، ولم يقتصر تفكيرنا على المرخ والعفار والشجر الأخضر كله بإختلاف أنواعه وأحجامه هو المصدر الحقيقى للطاقة والنار يستمدها من الشمس ويختزنها فى خلاياه وأنسجته. فمن الشجر الأخضر يستخدم الخشب فى الوقود، ومن هذا الشجر الأخضر يتكون الفحم على مر الدهور، ومنه ينتج البترول والغاز وهكذا تتكون مصادر الطاقة كلها فى الطبيعة من هذا الشجر الأخضر.

ويتغذى النبات كما يتغذى الحيوان ولكن إذا كان غذاء الحيوان يتكون من مواد عضوية معقدة التركيب فإن غذاء النبات يتألف من مواد بسيطة تنحصر فى الماء وما يحمله من أملاح ذائبة يمتصها النبات بجذوره الممتدة والمتفرعة فى التربة. وكذلك من غاز أكسيد الكربون الموجود فى الهواء الجوى، ومن هذه المواد البسيطة غير العضوية يبنى النبات موادا عضوية معقدة التركيب، وبهذا تتم أهم عملية من عمليات البناء، وهى عملية التمثيل الضوئى وهى العملية التى يستمد فيها النبات الطاقة من

الشمس ويشترط لحدوث عملية البناء هذه وجود الماده الخضراء أو الكلوروفيل الموجود في الأوراق النباتية والتي تعطيها ذلك اللون الأخضر المعروف.

ونتيجة لهذه العملية ينطلق غاز الأكسجين الذى يتحد بعضه مع كربون المواد العضوية سواء كانت حيه أو ميتة، كما يستهلك بعضه فى عمليات البناء. أما ما يتبقى بعد ذلك فيبقى حرا فى الهواء.

وعمليات البناء هذه يطلق عليها اسم عملية التمثيل الكلوروفيلى إذ أن الكلوروفيل الأخضر، كما قلنا ضرورى لعملية البناء هذه وتكوين مركبات الكربون المختلفة فى أجسام النباتات الخضراء، وهى من غير شك مصادر الوقود الطبيعية فى دنيانا هذه، ويحدثنا القرآن الكريم عن الشجر الأخضر ولا يقتصر على كلمة الشجر وحدها بل يقول سبحانه وتعالى. الشجر الأخضر. ولعل فى هذا إشارة إلى المادة الخضراء وضرورة وجودها لتكوين هذه المركبات الكربونية المختلفة التى تتكون فى خلايا وأنسجة النبات.

ومن هذا الشجر الأخضر أيضا نستخرج الزيوت والشموع، وكلنا يعرف كيف كانت تستخدم هذه الزيوت قديما فى الإضاءة، ولا زالت الشموع تستخدم حتى وقتنا هذا كمصدر للإضاءة والزينة معا.

وعندما نقول أن النبات مصدر من مصادر الوقود والنار لا نستطيع أن نقول أن كلامنا هذا يقتصر على الخشب وحده أو الحطب وحده، بل هناك من منتجات النبات غير الخشب ما يسمى بالتربة اللبدة والفحم، وهى من بين المراحل المختلفة فى عملية تحويل النسيج النباتى إلى كربون.

أما الخشب فهو كما نعلم وقود يمتاز بقابليته للإحتراق بنسبة ٩٩٪ فى حالة جفافه التام، وتتوقف قيمة أى خشب كمصدر للوقود على ما يتبقى من ماء، الذى إن قل حسن نوع الخشب. وهنا يحدثنا القرآن الكريم:

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾

(الواقعة ٧١_٧٢)

وهذا استفهام تقريرى يطلب اقرار المخاطبين واعترافهم بأنه هو الذى أنشأ الأشجار التى تصلح وقودا للنار.

أما التربة اللبدة وهى تستعمل كوقود أيضا فى الدول التى يندر فيها الخشب، ولو أنها تترك من خمس إلى خمس عشرة مرة ما يتركه الخشب من رماد. وتتكون التربة اللبده من رواسب مواد نباتية خضراء قد تراكمت فى الأراضى الرطبة الضحله والمستنقعات وقد تحللت هذه المواد ببطء وتفحمت لدرجة ما حتى أنه من الممكن تمييز الأنسجة النباتية المختلفة المكونه لها بسهولة. وقد توجد على شكل فحم بنى ناعم فى أقصى الأغوار فى بعض أماكن التربة اللبدة مكونه ما يسمى باللجنيت.

ومن الممكن أيضا تمييز تركيب النباتات الأصلية المكونة له وتمثل اللجنيت المرحله الثانيه فى تكوين الفحم.

ثم ننتقل بعد ذلك إلى الفحم الذى يتكون من نباتات عاشت فى الأحقاب الجيولوجية السحيقة، وقد تحلل نسيج النبات الأصلى كله وتحول إلى كربون. والفحم أكثر صلابة وأشد تماسكا من التربة اللبده واللجنيت وله قوة حرارية أعلى منها وينتج كمية أقل من الدخان والرماد.

وتحول النبات إلى فحم يعتمد على عمليات بيوكيميائية للتفتيت ثم على عمليات ديناميكية. وكذلك يعتمد نوع الفحم على البيئة التى تكون فيها ونوع النبات الذى تكون منه، وكذلك طبيعة وفعل البكتريا أما رتبة الفحم فتعتمد على درجة التحول.

فإذا ما سقطت شجرة على أرض جافه فإنها تتحلل الى ثانى أكسيد كربون وماء اللذان يصعدان إلى الهواء، ولا يتكون الفحم نتيجة لهذه العَملية. ولكن إذا سقطت

هذه الشجرة في الماء حدث تحلل ببطء، وهذه هي الخطوة الأولى الأساسية في تكوين الفحم. ثم تتوقف عملية التحلل هذه قبل أن تتم تماما، وهذا ما تقوم به البكتريا وبذلك تساعد على حفظ وتجميع الخلايا النباتية. فنشاط ونوع البكتريا يؤثران تأثيرا كبيرا في كمية المواد المتبقية الغير متحلله، وبالتالي تؤثر على نوع الفحم المتكون، ويقال أنه لابد لتكوين الفحم من وجود منخفضات متسعه بها نباتات مائية كما يجب أن تكون مياه هذه المنخفضات عذبه لتساعد على نمو النبات، ويتكون الفحم في دورات روسوبية كما أن سرعة التكوين تعتمد على النباتات والظروف البيئية، وقد قدر أن حوالي ١٥٠ سنة كافية لتكوين قدم واحدة من الفحم القارى وأن حوالي ٢٠٠ سنة كافية لتكوين قدم من فحم الأنثاسيت، وكلما كان الفحم قديما كلما ازدادت الفرصة لتكوين رواسب كثيره، وبذلك يزداد الضغط فتزداد عملية التحويل.

ثم تعالوا بعد ذلك نستمع الى قوله تعالى:

وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ (الأعلى ٤_٥)

قال ابن عباس المرعى هو الكلأ الأخضر، والغثاء من النبات ماحملته المياه وسيرته مع الزبد ورسب وانظم في الكدورات وقوله أحوى أى أسود أى أنه اكتسب لبعد الزمن الذى رسب وانطم فيه سوادا انتشر به مكتسبا من الأرض ولا يعلم المدة التى يصير فيها الغثاء أسود إلا الله تعالى. وقيل في تفسير القاضي بيضاوى (والذى أخرج المرعى) أنبت ما يرعاه الدواب فجعله بعد خضرته (غثاء أحوى) يابسا أسود وقيل أحوى حال من المرعى أى أخرجه أحوى من شدة خضرته.

وتدل هذه الآية الكريمة على تكون الفحم من النبات، وقد أظهرت الدراسة الميكروسكوبية الحديثة للفحم أن المواد الأولية التى منها يتكون عبارة عن نباتات كانت تعيش في المستنقعات، وتختلف هذه النباتات عما يعيش منها الآن. وقد أمكن التعرف على أكثر من ٣٠٠ نوع من هذه النباتات والتى كانت تعيش في العصر الكربونى،

ولقد أثبتت جذور هذه النباتات التى أكتشفت فى التربة بأسفل رواسب الفحم أن الفحم قد تراكمت مواده مكانيا، وهكذا يتحول المرعى إلى الغثاء الأحوى.

فسبحان الله يخلق من الشجر الأخضر نارا تتمثل فى الخشب وتتمثل فى الفحم على إختلاف أنواعه وما يشتق ويستخرج منه كالبترول، وهكذا فى كل آية قدره وفى كل آيه معجزة وسبحانه وتعالى القائل:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾

(يوسف ١٠٥)

المحتـــويات

صفحـة